

المجلد الحادي والعشرون

جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

٩٦

مجلة الأزهر



مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

تصدر شهر ربيعاً عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مجلة الأزهر

المجلد الحادى والعشرون

مدير المجلة

ورئيس تحريرها



مركز تحقيق وتطوير علوم الأزهر

٤٠ مصر والسودان
٥٠ طاجيك القطار المصرى

الاشتراك السنوى

نفس العدد ٤٠ مليا

ادارة المجلة : بديوان الادارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِحْيَاءُ الْإِسْلَامِ بِمِثَالِ الْأَكْبَرِ

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
الهرفون كوال ، سفير النمسا السابق في الدول الشرقية بمناسبة عودته إلى النمسا
بعد إقامته في الشرق مدة الحرب الأخيرة ، والهرفون كوال من المهتمين بالدراسات
الإسلامية والتاريخية ، وله مؤلفات عن تركيا والشرق ، وهو معروف فوق ذلك
بميوه الشرق ، وصادق عواطفه نحو الشعوب الإسلامية ؛ عرف وعاش كثيرا
من رجالها ؛ بل إن له في مصر صهرا ونسبا .

وقد دار بينه وبين الأستاذ الأكبر حديث طويل ، شمل بعض ذكرياته
القديمة أثناء عمله السياسي في بلاده وفي البلاد الشرقية التي مثل فيها حكومته ،
وقد سأل الأستاذ الأكبر سعادة السفير عن حال المسلمين في النمسا ، ومركزهم
الاجتماعي وعلاقتهم بالحكومة والمواطنين . فقال : إن مركز المسلمين في النمسا مركز
ممتاز ، وهم موضع احترام الحكومة والشعب ، وهم متمتعون بحرياتهم في جميع نواحي
الحياة ، ويتولون كل مناصب الحكومة بلا تفرق بينهم وبين المواطنين ، وإنه قد
بذل جهودا كثيرة لمساعدتهم إبان عمله في النمسا ؛ فحصل من حكومته على وعد
ببناء مسجد ، وكادت الفكرة تتحقق لولا أن حالت دونها ظروف الحرب .

فرجا الأستاذ الأكبر سعادة الوزير أن يعمل على إحياء هذه الفكرة حين
عودته . وسأله عن نظام الجامعات في النمسا ؛ فأنبأه الوزير أن من بين الكليات
واحدة لأصول الدين ، وأنه يتمنى أن تتصلح الأمور فتحتل الدراسات الإسلامية
مكانها بين هذه الكليات . وأوضح الوزير رغبته الصادقة في أن يكون لشيخ
الإسلام والجامعة العظيمة أكبر الأثر في درء الخطر الشيوعي عن شعوب

الإسلام . فأجابه الأستاذ الأكبر : إن تعاليم الإسلام تجعل شعوبه أبعد ما تكون عن ذلك الخطر الهدام ، فبادئ الإسلام أقوى درع لأصحابه من ذلك الشر ؛ إذ أن نظام الزكاة في الإسلام قد ضمن التكافل الاجتماعي للمسلمين ، بما فرضه للفقر والمحتاجين من نصيب في أموال الأغنياء . وأكد الأستاذ الأكبر أن علماء المسلمين يعملون دائبين على غرس المبادئ الإسلامية في قلوب الشعوب الإسلامية ، ويقومون على رعايتها وتنفيذها ؛ وبذلك يحمون البلاد الإسلامية والعربية عن ذلك الخطر الهدام .

والمح الوزير إلى - وادث فلسطين التي يرى بين طياتها خطر البلاشفة وسماستهم من اليهود ، وأنه يتمنى أن يقي الله الشرق العربي كله عواقب هذه الفتنة . فطمأنه فضيلة الأستاذ الأكبر بما وعد الله عباده من تعذيب اليهود ، وتشريدهم في أنحاء الأرض . وأنه يحمد الله الكريم الذي جعل زمام مصر زعيمة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية إلى ملك مؤمن بعدالة قضية الإسلام والشرق ، حريص على توجيه الشعب إلى أهداف خيره وخير الإنسانية جميعاً ، ومن كال إنسانية الفاروق وبره اهتمامه العظيم بتعليم الطلاب ، من جميع شعوب الإسلام في الجامعة الأزهرية ، ينفق عليهم من ماله الخاص ، ويرعاهم بعنايته السامية .

فقال سعادة الوزير : إنه يغبط مصر وبقية الشعوب الإسلامية على حظها في رعاية الفاروق العظيم بقضاياها ، ويتمنى للعرب النجاح والتوفيق في جهادهم ضد الصهيونية .

فشكر له الأستاذ الأكبر هذه التحيات قائلا : إن الله معنا ، وقد وعدنا في كتابه العزيز بالنصر ؛ إذ قال تعالى في وصف اليهود : « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » .

واستأذن السفير من الأستاذ الأكبر في زيارة الجامع الأزهر والمكتبة ، فأذن له وودعه شاكرآ . وكان مع سعادة السفير الأستاذ الدكتور أحمد بدوي ، أستاذ الآثار القديمة بكلية الآداب ، وتولى مهمة الترجمة عن الألمانية التي كان يتكلم بها سعادة السفير .

زيارة جلالة ملك الأفغان للأزهر

في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد ١٢ مارس سنة ١٩٥٠ ،
تفضل حضرة صاحب الجلالة ملك الأفغان ، محمد ظاهر شاه ، بزيارة الأزهر ،
وكان في استقباله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون
الشناوى ، شيخ الجامع الأزهر ، يحف به أجلاء العلماء وكبار الموظفين ، وبعد أن
حيام مصالحة ، صعد إلى الطابق الأعلى حيث مكتب الأستاذ الأكبر ،
وأضى فيه برهة مع فضيلته وكبار مستقبليه ، كان فيها محل الإجلال والتعظيم ،
ثم نهض لزيارة كلية الشريعة ، فاستقبله فيها حضرات المدرسين ، يتقدمهم فضيلة
الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون شيخها الجليل ، فاستمع جلالاته فيها لأربعة
دروس ، وهناك حياه شيخها بكلمة بليغة بآين فيها المهمة الخطيرة التي تقوم بها
هذه الكلية ، ثم قصد من هناك إلى مسجد الإمام أبى عبد الله الحسين ، ولبت
فيه نحو ربع ساعة .

ثم انتقل منه إلى الجامع الأزهر حيث أدى فريضة الظهر ، وزار مكتبته
العمامة ، فاستقبله فيها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى مديرها
وحضرات معاونيه ، واستعرض فيها المصاحف الأثرية وبعض المؤلفات النادرة .

ومن هناك استقل جلالاته السيارة الملكية تتبعها سيارات الحاشية ، وتحيط
بها وتقدمها مotosيكلات الحرس المصرى ، فأصداً سراى الزعفران حيث يقم
فيها ضيفاً لحضرة صاحب الجلالة ملكنا المحبوب .

وهذا نص الكلمة القيمة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة بين يدى حضرة صاحب الجلالة
ملك الأفغان :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر في شخص كلية الشريعة ، يحسب أسانذته وطلابه جلالتهم تحية طيبة مباركة ، تليق بمقامكم السامي ، وجلال ملككم العظيم ، ومكانة شعبكم الوفي المعروف بالشجاعة والإقدام والتمسك بتعاليم الإسلام . ويرحبون كل الترحيب بتشريف جلالتهم لكلية الشريعة ، التي امتازت بدراسة علوم الشريعة الغراء أصولها وفروعها ، وبالفضل بالاستماع الى دروس أسانذتها . ويعتبطون الاغتباط كله بهذا التفضل العظيم ، ويعلمون سرورهم وابتهاجهم بهذه الزيارة الكريمة المباركة ، التي تتجلى فيها آيات وحدة المسلمين وأخوتهم ، ويسطع منها نور تعاطفهم وتراحمهم ؛ كما أنها تحمل في ثناياها ما اشتهر عن جلالتهم من قوة في الدين ، ومثابة في الخلق ، ومحبة للعلم وإكرام لاهله .

وإني يا صاحب الجلالة وجميع أسانذة الكلية وموظفيها وطلابها ، لنعد هذه اللفتة الملكية والتوجيه السامي إلى تخصيص كلية الشريعة بهذه الزيارة الميمونة ، مفخرة عظيمة ومنحة ملكية سامية نعتز بها ، ونذكر يومها دائماً إن شاء الله تعالى ذكر الايام السعيدة ، والاعياد المباركة ، وستكون حافزة للجميع على القيام بواجبهم ، كما أننا نعتبرها تكريماً للشريعة الغراء وللقائمين بتدريسها في أشخاصنا .

فباسم واسم جميع أسانذة الكلية وطلابها أرفع لمقام جلالتهم بيد الإجلال والتكريم ، والاحترام والتعظيم أسمى آيات الشكر على تفضل جلالتهم بتشريف كلية الشريعة وزيارتها ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ ذاتكم الكريمة ، وأن يديم التوفيق لجلالتهم ، والسرور والاعتباط لشعبكم الكريم بعدلكم الشامل ، وإحسانكم العميم ، ورعايتكم السامية لجميع أفرادهم .

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر قائم منذ ألف عام على حفظ الشريعة الفراء ، وما تحتاج إليه من علوم ، ونشرها بين المسلمين في جميع الأقطار ، ولقد كان محل عناية الملوك والسلاطين بالديار المصرية ، وفي القرن الأخير زادت العناية به بفضل الأسرة العلوية المالكة . وقد تضاعفت العناية به والرعاية له ، والاهتمام بشئونه مادياً وأديباً في عهد المعفور له الملك فؤاد الأول - طيب الله ثراه - وأعلى درجته في عليين ، وقد ترسم خطاه نجله حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول - أيده الله بنصر من عنده ، وأعز ملكه وأدام توفيقه - فأعيدت وجهيها السامى ، وأمرهما الكريم تنظيم الأزهر تنظيمًا شاملاً كاملاً ، وأنشئت فيه ثلاث كليات : كلية الشريعة التي تشرف اليوم بزيارة جلالته ، وكلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية . وفي عهدهما وبأمرهما الكريم تضاعف إنشاء المعاهد الدينية التابعة للأزهر في الأقاليم ؛ حتى كادت تعم جميع مديريات المملكة المصرية .

وأنشئ فيه قسم للوعظ والإرشاد ينتظم عدداً كبيراً من أساتذته المتخصصين بجوبون البلاد للدعوة والإرشاد . وأرسلت البعث من أساتذته لكثير من البلاد الإسلامية يعملون في مدارسها ويعظون أهلها . وزادت تخصصاته حتى أربت على المليون من الجنهات ، وأنشئت مدينة الجامعة التي منها هذه الدار المخصصة لكلية الشريعة ، والقاعة الكبرى المخصصة للمحاضرات ، والعمائر الكبرى المخصصة لسكنى الطلاب ، وسيتبعها غيرها من مباني تلك المدينة .

والجامع الأزهر الآن مكاماته ومعهده يضم أكثر من ألف ومائتين من المدرسين ، وأكثر من عشرين ألفاً من الطلاب : من أبناء مصر ومن البعث التي وفدت إليه من سائر الأقطار الإسلامية ؛ يتلقون العلوم الشرعية والعلوم العربية والعلوم العقلية وغيرها ، والجميع في موضع الرعاية والعناية من حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ورجال حكومته السنية . وبخاصة طلاب البعث الإسلامية ، فقد هيئت لهم بأمر جلالة مولانا الملك المعظم المساكن اللائقة بهم ، وأغلق عليهم جلالته من بره ، تخصصت لهم المرتبات التي تكفي لنفقاتهم .

وقد تخرج كثير من طلبة البحوث الإسلامية من هذه الكلية ، ورجعوا إلى بلادهم وشغلوا مناصب هليا نذكر منهم السيد النبيل ، محمد هاشم المجددى ، نجل التقي الصالح الغيور على الدين معالى الوزير السيد ، محمد صادق المجددى ، الذى أحب المصريين وأحبوه . ولا تزال الكلية ترحب بالوافدين من بلاد الافغان وغيرها من البلاد الإسلامية .

هذا وإنى أبتهل إلى الله العلى القدير أن يلم شمل المسلمين ، ويعلى كلمتهم ويقوى شوكتهم ، ويوفقهم جميعا إلى الاعتصام بحبله المتين فى ظل أصحاب الجلالة والفضامة ملوكهم ورؤسائهم . . آمين .

والسلام على جلالتم ورحمة الله :



مركز تحقيقات كميوير علوم إسلامي

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

المدنية كلمة مشتقة من « مدّن المدائن ، أى بناها ومصرها ، و« تمدّن ، أى تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة .

ولكن للمدنية في عرف العلماء الاجتماعيين معنى أوسع مما مر ، فهي تعنى عندهم الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، وبهذا فقد اكتسبت المدنية معنى أرفع من معناها اللغوى ، إذ اعتبرت مثلاً أعلى للحياة البشرية تتدرج إليه الأمم تحت تأثير رقيها العلمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . وجاء الفلاسفة فقررُوا أن الإنسان مدنى بطبعه ، أى أنه مغطور على الارتقاء ، وعلى بلوغ غايات بعيدة من السمو العلمى والأدبى والصناعى ، وهم بهذا القول ما فعلوا شيئاً غير حكاية الواقع المحسوس ، فإن الإنسان خلق مجرداً من جميع ما يلزمه من ضروريات العيش ، وفروع العلم ، وضروب الفنون والوسائل ، ولم يصل بعد إلى غاية مداه ! بلغ كل هذا بدوافع ذاتية ، وحوافز نفسانية ، وقوى مودعة فيه ، لانتى تدفعه إلى الاستزادة مما هو فيه حتى قدّر بعض الحكماء أنه سيصل إلى مستوى من الترقى لا يحول بخيال إنسان .

لسنا بصدد الكلام عن قابليات الإنسان ومواهبه النفسية ، ولكننا بسبيل بيان ما فى الدين الإسلامى من عناصر المدنية ، تبرئة له من التهمة التى يشيعها الماديون من أن الأديان هدوة طبيعية للحضارة الإنسانية ، ما أخذ بها قوم إلا أصبحوا أعداء لكل ارتقاء مادى ، وهبطوا إلى حضيض الشعوب البدائية .

للمدنية ككل الشؤون الاجتماعية عناصر يتألف منه كيانها ، تؤثر فى الجماعات البشرية فتؤديها إلى شكل من الوجود يتناسب والبيئة المحيطة بها . وللديانات تعاليم خاصة بها ، تارة يتفق بعضها وتلك العناصر فترتقى الأمم الآخذة بها ، وتصل إلى مدى بعيد من التحضر ؛ وتارة لا يتفق بعضها الآخر وتلك العناصر ،

فتتدهور عن مستواها الأول ، ولا تزال تمنح في التدهور حتى تصل إلى الحضيض ، فتفنى في جثمان أمم أخرى .

وبعد ، فقد جاء الإسلام إلى العرب وهم لم يصلوا بعد إلى درجة أمة ، وذلك بسبب قحولة بلادهم ، وحرمان أرضهم من الأنهار ، وما درجوا عليه وألقوه من الحياة القبلية آمادا طويلة ، فوقفوا بسبب تلك الحالة عن الترقى الأدبي والمادى أجيالا طويلة ؛ وما وصل إلى شيء من ذلك من قبائلهم لم يلبث إلا قليلا حتى تلاشى ، وعاد إلى مثل ما كانوا عليه من البداءة والجاهلية حتى ظهر الإسلام ، وما إن دخلوا فيه ، وجروا على تعاليمه ، حتى تطوروا إلى درجة أمة موثقة الأواصر ، موحدة المبادئ ؛ ولم يمض عليهم غير جيلين حتى رأيتهم قد أصبحوا للبشرية قادة في العلم والفلسفة والصناعة ؛ وامتد ملكهم إلى نحو ربع الكرة الأرضية ، وهو ملك لم ينبغ لامة قبلهم ولا بعدهم إلى يومنا هذا ، حكموه بعدل وإنصاف يضرب بهما المثل إلى عهدنا الراهن ، فكيف يتفق للعرب أن يظفروا إلى هذه المنزلة من التقدم العالى ، إن لم يكن في الدين الذى دخلوا فيه ، وهو الإسلام عناصر لتلك الحالة الرفيعة التى تأدوا اليها ؟

هذا أمر لامعدي عنه ، فما هى هذه العناصر ؟

(أولها) إحكام أواصر الاجتماع ، وتوثيق عرى الوحدة ، إلى الحد الذى تلائم فيه الفوارق الشخصية ، فيصبح معه المجتمع كالفرد الواحد تحركه إرادة عامة ، وتدبره روح واحدة ، وتدفعه إلى غاية مشتركة هى السعادة الكلية التى يحظى بالمتاع بها ، والعيش فى كنفها ، جميع الأفراد على حد سواء ، على مثال أعضاء الجسم الواحد يستمتع كل عضو بنصيبه من سلامته دون أن ينقص منها شيء ؛ وقد وصل المسلمون الأولون إلى هذه الدرجة الممتازة من الاجتماع بفضل المبادئ الإسلامية ، وتأثير الروح المحمدية ، فكان أثرهما فى أمة لا عهد لها باجتماع من أغرب الظواهر العمرانية ، وأدعاهما إلى الدهش والخيرة . أصبح المجتمع الإسلامى جسداً واحداً تحركه روح واحدة على وجه لم يعهد له مثيل فى مجتمع آخر ؛ حتى روى أن صحابياً منهم حمل قدحاً من الماء ليروى صدى بعض الجرحى فى موقعة ، وكان منهم كثيرون بجواره يجودون بأرواحهم ، فلما اقترب منه

أشار إليه أن يقدم القدح للذي يليه ، فلما قدمه إليه أشار له هذا ليعطيها الواحد آخر ، فلما انتهى إليه آثر على نفسه جرباً آخر بالقرب منه ، وهكذا صار حامل القدح يتردد به بين الجرحى ، وكل منهم يؤثر على نفسه غيره حتى ماتوا جميعاً عطاشاً ولم يصب واحد منهم قطرة . وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حالة أصحابه من الناحية الاجتماعية فقال : « مثل المؤمنين في توادعهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ، وقال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، وقال ابن عباس : « لقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجوار حتى خشينا أنه سيورثه ، .

هذا التماسك الاجتماعي من أوليات عناصر المدنية ، لأن الأفراد إذا تكاثفوا على حفظ كيان الاجتماع ، ووثقوا بأن وجوده غير مهدد بالتفكك ، لم يحرصوا همهم كله في وجودهم الشخصي وضرورياته من مأكل وملبس ، بل يحل محله كيانهم العام ، ويشغلهم ما هو بحاجة إليه من استصلاح بيئته ، وتوزيع مقوماتها ، ومن ترقية جماعته وتمهيد سبل حياتها ، وتنمية عددها ، واكتشاف وسائل تمويثها ، فقتشتغل على هذا الوجه عمول أذكيائها ، وأولى العلم منها بالأمور الفنية ، والاكتشافات الصناعية ، والتطوع لأجل الأغراض العمومية . وقد تشدد هذه العاطفة الاجتماعية حتى تصل إلى الاستهانة بالحياة الشخصية ، في سبيل كشف جغرافى ، أو تركيب كيمائى ، أو تحقيق طبي ، ولو أردنا أن نسرّد أسماء من لقوا حتوفهم جرياً وراء هذه المقاصد العامة لاضطررنا إلى الإطالة .

والحياة القبلية لا تتوافر فيها البواعث النفسية الدافعة للترقى الأدبى والمادى ، لأنها لقلة عدد أفرادها ، وعدم طمأنينتها على وجودها ، بسبب الإغارات المتوالية عليها من جيرانها ، تطفئ لديها عاطفة الدفاع عن النفس والأهل والولد على كل عاطفة ذات آثار عامة ، فلا تشتغل بالرجالها بغير التسليح والوقوف موقف المتربص لكل مفاجأة عدوانية تقع في ليل أو نهار ، وجماعة هذه حالتها من توقع المباغثات ، وتخوف الغارات ، لا يدور بخلد أحادها غيرهم واحد ، وهو الدفاع عن النفس ،

فلماذا السبب لا تصادف في القبائل واحدة تخطت دور الحياة البدائية ولو مكثت على حالتها ألف سنة .

وما حى المسلمين من شر التفرق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم غير ما هنى به الإسلام من توثيق أواصر الاجتماع ، وإحكام عرى الوحدة العامة . وقد جرت العادة وخاصة في الجماعات القريبة العهد بالوجود ، أنها عقب موت موجدتها تتداعى إلى الانحلال ، انصياعا لتسويات أركان حربه من القواد الكبار ، فتقع بينهم الشحناء ، وتشب نيران الحروب آمادا طويلة لا تنجى الشعوب والأفراد من ورائها غير القلاقل والفتن ؛ فتتلاشى طيبتها ، وينتشر فيها البؤس واليأس ، ثم تنتهى إلى ما قدر لها من مغبة غير محودة . كما حدث بعد وفاة الاسكندر المقدوني ، فقد اتفق له فتح بممالك برمتها عقب حروب موفقة ، فلما وافته أجله اقتسم قواده ملكه بينهم والسيوف مصلنة في أيديهم ، ووقعت الشعوب بسبب ذلك في فتن كقطع الليل المظلم ، ثم انتهى الأمر بتلاشى ذلك الملك العظيم .

ولكن المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولوا عليهم واحدا منهم ، ولم يؤد ذلك في أمة كانت بالأمن مؤلفة من قبائل شتى إلى انقسام يفضى إلى فتنة ، غير جماعات ارتدت عن الإسلام لم تلبث أن عادت إلى حظيرته كما كانت . ولما توفى خليفته طلب المسلمون إليه أن يختار لخلافته أولام بها ، فكان ما أرادوا وسمعوا له وأطاعوا ، وفتحوا سورية ومصر وبلاد الفرس على عهده . وتوالى الخلفاء وتوالى الفتوح حتى أصبح ملك المسلمين تساوى مساحته ربع الكرة الأرضية ، في مدى نحو قرن واحد . وفي أثناء ذلك نشطت العقول لإيتاء ثمراتها ، وتحركت الهمم للتبذير في ميدانها ؛ ولم يمض غير قرن آخر حتى بلغ المسلمون من المدنية إلى المستوى الرفيع الذى يبناه في مقالنا السابق . وفيما يلى من المقالات نأتى على بقية عناصر المدنية ومكانتها من الأصول الإسلامية ، وآثارها على المسلمين حتى بلغوا بها الأوج الذى أدهش العالم تحت هداية القرآن والتربية المحمدية .

محمد فريد وجدي

السنة التشريعية :

مِنْ خِصَالِ الْفِطْرَةِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكرى ياسين

روى الجماعة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خمس من الفطرة : الاستحداد ، والختان ، وقص الشارب ، وتنف الإبط ، وتقليم الأظفار » .

عرض هذا الحديث لبيان حكم الشريعة في بعض خصال الفطرة ، وأوضح أن هذه الخصال إذا فعلت ، اتصف فاعلها بالفطرة ، التي فطر الله العباد عليها ، ورغبتهم فيها ، واستحبها لهم ، ليكونوا على أكمل صفة ، وأشرف صورة .

وقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة أن هذه الخصال تزيد على الخمس المذكورة في الحديث الذي معنا ، وقد بلغ بها ابن العربي ثلاثين خصلة ، وقال غيره : إنها تزيد على ذلك كثيرا ، وذكروا منها غير الخمس المتقدمة : الوضوء ، والاستنشاق ، والاستنثار ، والاستنجاء والسواك ، وغسل الجمعة ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، وغسل البراجم ، والانتضاح ، والتعطير ، والنكاح ، والحجامة ، والحياء ، والحلم ، وغير ذلك ، والظاهر أن الاختلاف بين الأحاديث الواردة بهذا الشأن إنما هو بحسب المقامات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر من هذه الخصال في كل مقام ما يليق بالمخاطبين .

الفطرة : من الفطر ، وهو الشق طولا ، ويطلق على الوهي ، وعلى الاختراع ، وعلى الإيجاد ، وتطلق الفطرة على الحلقة المبدئية ، وعلى الجبلية ، وعلى الدين . وفطرة الله : هي مراكز في الإنسان من قوته على معرفة الإيمان ، وإلى هذا المعنى

يشير قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، ، أى أن كل أحد لو ترك في وقت ولادته وما يؤديه إليه نظره لأداه إلى الدين الحق ، وهو التوحيد . ويؤيده أيضا قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله ، وإليه يشير في بقية الحديث ، حيث عقبه بقوله : « فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، .

وذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالفطرة في الحديث : السنة القديمة التي اختارها الأنبياء ، واتفقت عليها الشرائع ، وكأها أمر جلي فطروا عليه ، وقالت طائفة : المراد بها الدين .

والاستحداد : هو استعمال الحديد في حلق الشعر من مكان مخصوص من الجسد ، وفي التعبير بهذه اللفظة كناية طريفة عما يستحيا من ذكره إذا حصل بها الإفهام ، وأغنت عن التصريح . وقال النووي وغيره : السنة في إزالة شعر العانة الخلق بالموسى في حق الرجل والمرأة معا ، ولكن الحق أن أصل السنة يتأدى بالإزالة بكل مزيل من حلق وقص وثف وتؤر وغيرها ، وإنما ذكر الخلق ، لكونه الأغلب ، والاستحداد سنة بالاتفاق .

والختان : مصدر ختن بمعنى قطع ، والختان : قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص ، والختان ما ينتهى إليه القطع من الصبي والجارية وهو اسم لفعل الختان أيضا . وختان الصبي : قطع الجلد التي تغطي الحشفة ، وختان البنت : قطع جلدة تكون في أعلى عضوها فوق المدخل كالنواة ، أو كعرف الديك ، ويسمى ختان الغلام إعدارا ، وختان الفتاة خفضا ، وقال بعضهم : كلام أهل اللغة يقتضى تسمية الكل إعدارا ، والخفض يختص بالانثى ، وأفاد ابن الحاج في المدخل أنه اختلف في النساء ، هل يخفضن عموما ، أو يفرق بين نساء المشرق فيخفضن ، ونساء المغرب فلا يخفضن ، لعدم الفصلة المشروع قطعها منهن ، بخلاف نساء المشرق ؟ كما أفاد أن السنة لإظهار ختان الذكر ، وإخفاء ختان الانثى ، واختلف في حكم الختان ، فعن العترة والشافعي وكثير من العلماء أنه واجب في حق الرجال والنساء ، وعن مالك وربي حنيفة وغيرهما أنه سنة فيهما . وللختان وقتان : وقت وجوب ، ووقت استحباب ، فوقت الوجوب البلوغ ، ووقت الاستحباب قبله ، والاختيار أنه في اليوم السابع من بعد الولادة ، وقيل : من يوم الولادة ، فإن

آخر ، ففي الأربعين يوماً ، فإن آخر ، ففي السنة السابعة ، فإن بلغ وكان نضوا نحيفاً يُعلم من حالة أنه إذا ختن تلف ، سقط الوجوب ، ويستحب ألا يؤخر عن وقت الاستحباب إلا لعذر . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ختن الحسن والحسين لسبعة أيام ، ونقل مشروعية الدعوة إلى ختان الغلام .

وقص الشارب : أصل القص تتبع الأثر ، ويطلق على إيراد الخبر تاماً على من لم يحضره ، وعلى قطع شيء من شيء بآلة مخصوصة ، والمراد به هنا : قطع الشعر النابت على الشفة العليا من غير استئصال ، وهو المسمى بالشارب ، والفظ القص هو المذكور في أكثر الأحاديث كما هنا ، وجاء في بعضها لفظ الحلق والتقصير والجز والإحفاء . قال بعض الفقهاء : وكل هذه ألفاظ تدل على أن المطلوب هو المبالغة في الإزالة . وقال الطحاوي : ذهب قوم من أهل المدينة إلى أن قص الشارب هو المختار على الإحفاء ، وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا : بل يستحب إحفاء الشوارب ، ونراه أفضل من قصها .

وقد شرع ذلك مخالفة للجوس ، ومنعاً من التشويش على الآكل ، واثقاء لزهومة المأكول التي تعلق بالشارب ، واستئصالاً لمعنى الجال والنظافة . وحكى عن بعضهم : أنه لا يرى بأساً في إبقاء الشوارب في الحرب إرهاباً للعدو . ويستحب في قص الشارب أن يبدأ باليمين ، ويختار بين أن يقص ذلك بنفسه ، أو يوليه غيره لحصول المقصود بفعله ، ومن لا يحسن الأخذ من الشارب بنفسه ، يباح له أن يستعين بغيره بقدر الحاجة ، ويلتحق به من لا يجد امرأة ينظر فيها وجهه عند أخذ شاربه . وهو سنة بالاتفاق ، ويتأدى أصلها بقص الشارب بالمقص وبغيره ، ونقل عن ابن حزم القول بوجوب قص الشارب .

وتنف الإبط : إزالة ما نبت في باطن المشكب من الشعر بهذا الوجه ، والإبط يذكر وقد يؤنث ، وتأبط الشيء : وضعه تحت إبطه ، وهو سنة بالاتفاق . والسنة تأدى بالخلق أيضاً ، ولكن لما كان هذا المكان محلاً للرائحة الكريهة التي تنشأ من الوسخ الذي يجتمع فيه بالعرق ، فيتلبد ويهيج ، استحب التنف الذي يضعفه ، فتخف الرائحة بذلك ، بخلاف الحلق ؛ فإنه يقوى أصل الشعر ، ويغلظ جرمه ، ولهذا يصف الأطباء تكرار حلق الشعر في المواضع التي يراد قوته فيها ، والإبط إذا قوى فيه الشعر وغلظ جرمه ، كان أفوح للرائحة الكريهة لمن يقاربها ، فناسب أن يسن فيه التنف المضعف لأصله ، المقلل للرائحة الكريهة .

وتقليم الأظفار : إزالة ما طال منها عن اللحم بقص أو سكين أو غيرها من الآلات ، ويكره ذلك بالأسنان ، والتقليم من القلم ، وهو القطع ، والأظفار جمع ظفر ، وإنما جمع ووجد السابق : لأن الأظفار متعددة في اليدين والرجلين ، والمعنى فيه أن الوسخ يجتمع تحتها فيستقذر ، وقد ينتهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة ، والمستحب الاستقصاء في الإزالة إلى حد لا يدخل منه ضرر على الإصبع وهو سنة بالاتفاق ، ولم يثبت في ترتيب الأصابع عند القص شيء من الأحاديث ، ولكن ذكر النووي في شرح مسلم أنه يستحب البداء بمسبحة اليمنى ، ثم بالوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر ، ثم الإبهام ، وفي اليسرى بإبهامها إلى الخنصر ، ولم يذكر النووي مستنداً لهذا الاستحباب ، وتقليم الأظفار لا يتوقت بوقت ، والضابط فيه الاحتياج إليه ، فأى وقت يحتاج إليه الإنسان يفعله ، وقد استحب بعضهم دفن ما يقص من الشعر والظفر ، لكونها أجزاء من الآدمي .

قد يبدو لبعض الناس أن هذه الخصال ليست جوهرية ، وأنها ليست بمكان من الأهمية ، ولكن الواقع أنه يتعلق بها كثير من المصالح الدنيوية والدينية الجديرة بكل اعتبار وتقدير ، وهذه المصالح تدرك بالتبعية ، وتعرف بالتجربة ، فمنها تحسين الهيئة ، وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً ، والاحتياط للطهارتين ، والإحسان إلى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة ، ومخالفة شعار الكفار من المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان ، وامتنال أمر الشارع ، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » ، لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك ، إذ كأنه قيل : قد حسنت صوركم ، فلا تشوهوها بما يقبحها ، أو حافظوا على ما يستمر به حسنهم ، وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة ، وعلى التألف المطلوب ، لأن الإنسان إذا بدا في هيئة جميلة ، كان ذلك أدعى لانبساط النفس إليه ، وسرورها بمرآه ، فينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويقبل قوله ، ويحمد رأيه ، وإذا بدا في هيئة مشوشة مشوهة أثار ذلك في النفوس الاستمزاز منه ، والازورار عنه ، والاحتقار له ، ولا يسمع له قول ، ولا يقام له وزن ، ولا تقدر له رغبة ، ولا ترعى له كرامة ، بسبب إهماله وتهاونه فيما ينبغى أن يكون عليه من نظافة الجسم ، وحسن السمات ، وجمال الهندام .

حكم التفاوت بين الناس

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالازهر

سأل سائل عن معنى قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، مع ثبوت التفاوت في هذا الخلق على صور شتى ، بيان ذلك : أننا نرى الأرض الواحدة تنبت نوعاً من الثمر بذره واحد ، وغذاؤه واحد ، ويسقى بماء واحد ، ومع ذلك نرى تفاوتاً في خلقه ، فهذه الثمرة حلوة ناضرة قوية في تكوينها ، كأنما أدركتها عناية خاصة من بين أخواتها ، وتلك الثمرة ضعيفة ضئيلة حائلة اللون ، فاسدة الطعم ، متغيرة الرائحة ، حتى يكاد الناظر إليها يحسبها جنساً آخر غير الأولى وهي في الحقيقة منها ولعلها أختها في غصنها ، وبين هاتين ثمرات أخرى متفاوتات يقرب بعضها من الأولى وبعضها من الأخرى ، وقد جعل الله تعالى هذا التفاوت آية من آيات قدرته ، ونبه العقول إليه حيث يقول : « وفي الأرض قطع متجاورات وكنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . »

وكذلك نرى بعض البلاد يفضل بعضاً بما له من موقع حسن ، ومناخ حسن ، وبعضها يمتاز بجودة أرضه ، وملاحية تربته للإنبات والزرع وإخراج الطيبات ، أو بما تنطوى عليه هذه الأرض من منابع الغنى ، وكنوز الثروة ، وإلى هذا يشير الله عز وجل بقوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، فقوله : بإذن ربه ، معناه بخلقته وتقديره وما فضله به على غيره ، فهذا نوع آخر من التفاوت . »

والناس أكثر المخلوقات تفاوتاً، فمنهم الجليل ومنهم الدميم ، ومنهم الذكي ومنهم الغبي ، ومنهم الضعيف ومنهم القوى ، ومنهم الشجاع ومنهم الجبان ، ومنهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الرضى فى أخلاقه ، المحمود فى أفعاله ، ومنهم الجاني الغليظ الذى لا يطاق .

ولمّا لنجد الأسرة الواحدة من رجل وامرأة يشمران أبناء وبنات يصل أمرهم فى التفاوت الخلقى والخلقى الى مدى بعيد ، يُظن معه أن لا صلة بينهم .
وإلى هذا الاختلاف يشير القرآن الكريم فى كثير من آياته ، إذ يقول :
« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ،
« ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .
وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفى الله التفاوت بقوله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، ؟

والجواب : أن التفاوت المنفى فى الآية غير التفاوت المثبت فى الآيات الأخرى ، وذلك أن الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث إنها جميعاً مصنوعة بالحكمة مقدرة على سمنها معطاة خاتمها ، وما تصلح به وعليه فى نفسها ، وفى غيرها ، كما أنها مختلفة غير متساوية من حيث إنها أنواع يختص كل نوع بفائدة ، وأفراد يمتاز كل فرد بميزة ، والحكمة تمتضى هذا التفاوت ولا سيما فى الإنسان ؛ فلو أن الناس جميعاً كانوا على شاكّة واحدة لبطل التعاون ، واختل نظام الحياة ، ذلك بأن الإنسان - كما يقولون - مدنى بطبعه يحتاج إلى من يعاونه ويقوم عنه ببعض شئونه ، فإننا لو تصورنا إنساناً منفرداً ليس معه غيره لتصورناه مستوحشاً كثيباً ناقص التصرف ، معطل المواهب ، مغلوباً على أمره ، لا يستطيع أن يصل إلى ما يصلح به أمره كإنسان . ولو أن الناس كانوا جميعاً على غرار واحد فى الخلق والعلم والقوى والملكات والرزق والحظ ، لبطل التعاون أيضاً ، واختل نظام الحياة ، فإن كل واحد يرى أنه كغيره ، ولا يعترف بفضل عليه لمن سواه ، فتبطل الآمال ، وتتعطل الأعمال ، وتموت الرغبات ، ولا تبقى الحياة ميداناً للتزاحم والتسابق ؛ لأن كل امرئ فيها آمن على نفسه وماله

حكمة التفاوت بين الناس

٤٩٧

ورزقه ، متمتع فيها بحظه ، لا تفاوت بينه وبين غيره ، وليس هناك ما يدعو إلى نشدان الكمال ، أو التطلع إلى منزلة لم يبلغها ، وهو ينو ببصره إليها ، وبهذا يصبح كل واحد في الناس كأنه فرد برأسه ، لم يخلق أحد سواء ، لأنه وإن كان مجتمعاً فيما ترى العين ، يعيش بين أفراد من جنسه ، وروح ويغدو معهم ، لكنه منقطع عنهم بآماله ورغباته ، معتزل حياتهم ، متجنب معتك النشاط والسعى والعمل .

لهذا كان من مقتضى الحكمة ، أن يكون الناس في سائر أحوالهم متفاوتين غير متساوين ، وأن يحسن هذا من الأعمال والصنائع ما لا يحسنه ذاك ، وأن يمنح هذا من المواهب والقوى ما لا يمنحه ذاك ، ليظل كل منهم معلقاً بمن سواء مشاركاً له في القيام ببعض أعبائه ، متعاوناً معه في عمارة الأرض ، وتحقيق الخلافة فيها ، مقبلاً على ذلك برغبة فيه وميل إليه ، وطمع فيما وراءه ؛ وقد يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » . وقوله عز وجل : « قل كل يعمل على شاكلته » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خاق له » . فإننا نرى كل ذي صنعة متمسكاً بها ، حريصاً عليها ، وإن كابد فيها المتاعب ، ولا بس المشاق ، ونرى كل صنف من الناس راضياً بنوعه ، فلا الذكر يتمنى أن يكون أنثى ولا الأنثى تمنى أن تكون ذكراً . وكل امرئ حريص على أن يصل إلى أحسن الحالات فيما يسر له ، وفطر عليه . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المصلحة المترتبة على تفاوت الناس ، واختلاف همهم ومطالبهم وقواهم وتباين طبقاتهم بقوله فيما يروى عنه : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساوا هلكوا » .

هذا المعنى الواضح البين من شأنه أن يفتح عيون الناس على حقيقة يجب التسليم بها ، والرضوخ لحكمها ، هي أن كل نظام يبنى على ما يخالف تلك السنة ، ويحاول الناس فيه التسوية بين الأفراد ، وقسمة المخطوط بينهم على سواء ، هو نظام فاسد عليل ، لا يمكن أن يبقى ولو أيدته القوة ، وطمطنت به الدعاوات والخطب والكتب .

فليعلم ذلك أحلاس الشيوعية ، ومروجو فتنها ، والمرجعون على الناس بها ، وليسمعوا قول الله عز وجل في كتابه الكريم : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

بين الشريعة والقانون :

نظرات في توثيق المعاملة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

أسلفنا لك أن التوثيق كما يكون واجبا أو مندوبا يكون مباحا، ويشهد لي بذلك في حديث اليوم قوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تدورونها بينكم » . قال القرطبي في تفسير هذا : « إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة » ، أو « إلا أن تكون المبايعة تجارة حاضرة الخ ... » ولما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد ... هـ .

فالتجارة الحاضرة معناها عند القرطبي ما كان البيع فيها منجزا بنقد ، وكلامه هذا متفق مع ظاهر الاستثناء ، إذ كان النهي عن سامة الكتابة للدين ، فإذا جرى بعده بالتجارة الحاضرة مستثناة من ذلك النهي كان الاستثناء منقطعا كما قالوا ، وكان حكمها غير حكم الدين ، كما هو مقتضى الاستثناء .

وإذا لم يكن التوثيق في التجارة المنجزة مطلوباً لا إيجاباً ولا ندباً ، ولم يكن منها عنه لا تحريماً ولا كراهة ، فلم يبق إلا أن يكون مباحاً .

ومدلول الاستثناء قد تأكد صراحة بقوله تعالى : « فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » . فنفي الجناح لإبقاء الحال على أصله من الإباحة ، ولا يمنع ذلك أن يكون توثيقها مستحسناً في ذاته لاعتبارات أخرى كضمان عمدة المبيع أو ثمنه ، وهو ما يعرف بضمان الدرك .

فن شاء في التجارة الحاضرة المدارة بين الأيدي فليوثق وليستوثق بالكتابة أو ما يقوم مقامها ، ومن لا فلا ، وذلك ما قصدت إثباته فيما قصدت أن أواجه به من قال بالوجوب مطلقاً ، ومن قال بالنذب مطلقاً .

ومع أن القرطبي كما سبق ذهب إلى أن التجارة الحاضرة المستثناة من طلب

التوثيق ، هي ما كان البيع فيه بنقد ، فقد عقب على كلامه في ذلك بتفصيل يتضمن أن المستثنى من التوثيق ، إنما يكون في قليل ، كالمطعوم ونحوه ، وفيما كان ناجزا حصل فيه التقابض وانفصل كل من المتبايعين عن صاحبه .

أما ما يكون ذا شأن ، كالرباع والأرض والحيوان ، مما لا يقبل البيئونة ، ولا يناب عليه فيحسن السكتب فيه وبلحق بالدين في ذلك ، فكلام القرطبي يقتضى أن هذا النوع الأخير ، وإن كان تجارة حاضرة فلا يتناوله الاستثناء ويحسن فيه السكتب حيث لم يحصل فيه تقابض ، وبين كلامه أولا وأخيرا مغايرة في تفسير التجارة الحاضرة المستثناة ، فهي مرة البيع الناجز ، ومرة القليل ، كالمطعوم ونحوه . والذي أستظهره وأميل إليه : أن التجارة الحاضرة المستثناة تشمل ما كان منجزا بالفعل ، وما لم يكن منجزا بالفعل مما يديره التجار بينهم أخذا وعطاء ، ولم يكن مؤجلا إلى أجل مسمى وإن بلغ من القدر ما بلغ . ومثال ذلك : أن تذهب إلى الصائغ مثلا لا بتياع حلى منه فإذا لم يجده عنده استمده من جاره وباع لك وقبض منك ، وبعد وقت ما يعطى جاره ثمن ما أخذ منه على حسب اصطلاحهم الجارى بينهم ، وذلك يجرى في كثير من أنواع التجارات المنقولة ؛ فهذه الصورة وأمثاله تسمى تجارة حاضرة يديرها التجار بينهم وليست منجزة بالفعل ؛ إذ لم تقترن بالتقابض وليست مؤجلة إلى أجل مسمى ، ومع أن فيها شبهة بالدين فاعتبارها منجزة أقرب ؛ حيث لم تؤجل ولم يطلب فيها التوثيق شرعا ، وتلك هي التى يتناولها الاستثناء تناولا أوليا ، ونظرا إلى ما فيها من شبه بالدين يكون الاستثناء متصلا ؛ إذ المستثنى منه دين مطلوب توثيقه ، والمستثنى تجارة تشبه الدين ، عفى عن الناس في طلب توثيقها تخفيفاً ، وتيسيراً مراعاة لأن التجارة مبينة على سرعة الإنجاز ، وعدم التريث ، أو إغفال إدارتها للاشتغال بالتوثيق في أمر لا تشد الحاجة إلى توثيقه ، لأنه معتبر كالناجز حيث لا تأجيل فيه . ذلك الفرع أولى بالاستثناء من المنجز الذى ذهب إليه القرطبي ، إذ لا يعتبر ديناً ولا شبه دين ، ولا معنى لإقحام المنجز في مقام الاستثناء من الدين ، وللمنجز كلام يخصه في الإشهاد على البيع ، فكيف نعرض له هنا وتكلف استثناءه من حكم الدين وهو أجنب عنه ؟

ذلك النوع أولى بالاستثناء ، بل هو المقصود بالذات فيما أرجح ، وإلا فلا إرفاق

بالناس في حالاتهم التي صورتها بالمثال إذالم تكن التجارة الحاضرة التي تدار في البين كما فسرتها ، وذلك أمر فاش في الأسواق والمتاجر كما يرى من خالط وتعرف .

والمصاحبة التي اقتضت التوثيق في الديون هي التي اقتضت التسامح في هذه الحال من أحوال التجار والتجارة . والذي ننتهي إليه من هذا السياق هو أن الله تعالى أوجب التوثيق وأكد الطلب في صيغ كثيرة ، وذلك يوحى أنه لا فرق بين التجارة الحاضرة وغيرها ، ولما كانت التجارة الحاضرة بحاجة إلى شيء من الهوادة لانتهاز الفرص فيها ، نص الله تعالى على إخراجها من طلب التوثيق فيها بالكتابة وجعل الناس في خيار من ذلك تشجيعا لهم على التعاون وتدارك الأرباح .

ووصف التجارة المستثناة بالحاضرة ليس حتما أن تكون القليلة أو المنجزة التي انفصل فيها المتبايعان كما يقول القرطبي ، وقد وضع ما جعلت إليه في تحديدها . وخرج بوصف الحاضرة التجارة الغائبة عن محل العقد ، كما إذا وقع البيع في بضاعة غائبة ريثما تنتقل وتصل من جهة إلى جهة على نحو ما يقع بين التجار ، فذلك لاحقة بالسلم أو غيره من المدائنات ، فحكمها على الأصل وليست من المستثنى . وخرج بوصف « تدبرونها بينكم » التجارة التي لا تدار في البين ، كالتى تجرى فيها التبادل بين تاجر في جهة وتاجر آخر في جهة ثانية بواسطة البريد أو الجمرک يقوم عنهما في التسليم والتسلم ، وكذلك التي تجرى بين تاجر وغير تاجر من سواد الناس ، فكلما النوعين ليس من المستثنى لخلوهما من الوصفين ؛ ولأن الشأن فيهما ليس على التعجل وانتهاز الفرصة كالتى ذكرنا .

وقد بان أن الاستثناء أولا ونفى الجناح في عدم الكتب ثانيا إيدان بالإباحة يكاد يكون في قوة المنصوص عليه بشأن إباحة التوثيق فيها .

والإباحة هي القسم الكاشف الذى سلف لى أن صرحت بقصدى إلى إثباته ؛ وفي ذلك أطمئنان وكفى .

هذا وقد استوعبت كلام جمهرة من المفسرين الذين تبسطوا في القول ، وأفسحوا مجال الفهم للآيات واستنباط ما فيها من الأحكام ، فلم أر لواحد منهم كلاما جديدا يبعد عن كلام القرطبي وابن جرير ، ولم أر لواحد منهم حظرا يمنع أن يفهم فاهم ما ذهبت إليه من أن القول بإيجاب التوثيق لا يطرد في كل شيء ، وأن القول بالندب لا يطرد في كل شيء . وأن للعرف دخلا في توجيه النصوص الكريمة لآية الدين وتطبيقها ، وتوزيع التوثيق إلى واجب ومندوب ومباح ، وضبط المعاملة على ما ينبغي من ذلك .

الاصلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٢ —

عنى الإسلام بالأسرة ؛ لأن الأمة مجموعة من الأسرة ، والأسرة صورة مصغرة من الأمة ؛ فإذا تألفت الأمة من أسر قوية كانت قوية ، وإن تألفت من أسر ضعيفة كانت ضعيفة . وإن لم تكن هناك أسرة فليست هناك أمة ؛ لذلك عنى الإسلام بتوطيد دعائم الأسرة ؛ فسن لها نظاما قويا ، يحفظ كيائها ، ويشد عضدها ، ويقوى أواصرها ، ويضمن لها حياة سعيدة حميدة موفقة . ربط الزوجين برباط من السماء ، وجعل لكل منهما على الآخر حقوقا قررهما الشارع وبقيتها ، كما جعل للوالدين على أولادهم حقوقا ، وللأولاد على والديهم حقوقا ، وسن لهم نظام الميراث ، ليؤكد الصلة بينهم ، ويقوى الرابطة فيهم ، وأمر الآباء بالعدل بين أبنائهم حتى في القبل كي لا تتولد في قلوبهم الضغينة من الصغر ، ولينشأوا على الشعور بالحب المتبادل بينهم منذ الطفولة . أى شئ ترمى إليه الشريعة الإسلامية من وراء هذا كله سوى خير البشر وإسعاده ، وحياطة المجتمع الإنساني ، وتثبيت دعائمه حتى لا ينهار . ومن الأمور التي قررهما الدين الإسلامى حفظ المال بشئ الوسائل ، فشرع قطع يد السارق ، وأجاز دفع الصائل حتى الموت . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تعطه مالك ، فقال : أرأيت إن قاتلني ؟ قال : قاتله ، قال : أرأيت إن قتلني ؟ قال : فأنت شهيد ، قال : أرأيت إن قتلته ؟ قال : هو في النار ، رواه مسلم وأحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قتل دون ماله فهو شهيد ، متفق عليه . وفي لفظ : من أريد ماله بغير حق ، فقاتل فقتل ، فهو شهيد .

من هذه الأحاديث الصحيحة نعلم أن الدين الإسلامى يحترم الملكية ولا يهدرها ، ويجعل لصاحب المال الحق كل الحق فى الذود عن ماله ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدى وسفك دمه .

نعم اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الناس متفاوتين فى الثروة : « والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ، « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

والمعنى أنه سبحانه وتعالى لم يفرض قسمة أسباب معيشة الخلق إليهم لعلهم يعجزون عن تدبيرها ، فقسم الرزاق قسمة تقتضيها مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة فى الرزق وسائر مبادئ المعاش ، فمن ضعيف وقوى ، وفقير وغنى ، وخادم ومخدوم ، وحاكم ومحكوم . « ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » ، أى يصرف بعضهم بعضاً فى مصالحهم ، ويستخدموهم فى مهامهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعاشوا ويتأفدوا ويصلوا إلى مرافقهم ، لا لسكال فى الموسع ، ولا لنقص فى المقتر ، ولو فوض ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا ؛ إذ لو كانوا فى مستوى واحد من المعيشة لاختل التوازن ، وتعطل دولاب الحياة . على أن الدين الإسلامى لم يترك للفقير ماله من غير أن يجعل للفقراء والمساكين نصيباً فيه ، يسد منه عوزهم ، ويطعم جائعهم ، يكسى عاريهم ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكهم بها » ، وقال تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وقال تعالى : « كوا من ثمره إذا أثمر وآثروا حقه يوم حصاده » .

فى هذه الآيات ، وفى الأحاديث الصحيحة الكثيرة الدليل القاطع على أن هناك حقاً مقررًا ، وفريضة مفروضة ، تجب على كل مالك بلغ ماله النصاب . وقد فصلت الشريعة الإسلامية ذلك كله مسهباً فى باب الزكاة .

فرض الله على الأغنياء نصيباً فى أموالهم ، يؤدى للفقراء والمساكين وغيرهم ، وهو نصيب لا يتحيف مال الغنى ، ولا يقصر عن الوفاء بحاجة الفقير ، فلو أن الغنى شعر بواجبه ، وحسنت نيته ، ورقت عاطفته ، وحاسب نفسه ، فأدى إلى

الإصلاح الاجتماعي

٥٠٣

الفقير حقه في ماله ، ما رأينا فقيرا يتلوى من الجوع . ولو أن أولى الأمر قاموا باستخلاص هذا الحق من وجب عليهم ، وأوصلوه إلى ذويه لما كان بيننا عار ولا جائع ولا محروم .

لقد كانت هذه سبيل حكومات المسلمين في صدر الإسلام ، فقاتل أبو بكر وعمر مانعي الزكاة ، واستخلصوها من أيديهم ليت المال ، واستمر الأمر على ذلك قرونا عديدة ، فاسمعنا بشيء من حرب الطبقات طيلة هذه القرون الزاهية بالحضارة والعمران من الخليج الفارسي إلى شواطئ المحيط الأطلسي . وما كان ذلك كله إلا بفضل التشريع السماوي إذ ذاك ؛ شرع الله الذي خلق الداء وقدر له الدواء . ومن أجل المبادئ التي عنى بها الإسلام فكرة الإخوة الإنسانية ، فقد نهى القرآن الكريم إلى وحدة الأبوين ، الداعية إلى التعاون والتعارف والتناصر والتعاب بين بني الإنسان ، ونهى عن التفاخر بالأنساب ، ووضع مقياس التفاضل بين الناس ، فجعله التقوى لا الجنس ، ولا المال ولا القوة .

قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : « يا أيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

ومن مبادئ الإسلام السامية إحسان معاشرته المسلمين لغيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا في حالة العدوان ، وفي القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين » . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . وقد عمل رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفاؤه من بعده ، على وفق هذه المبادئ السامية حتى أبيع الإصهار إلى أهل الكتاب ، مع ترك الحرية للزوجة ، وعدم منعها من إقامة شعائر دينها .

ومن أسس مبادئه إقامة العدل بين الناس حتى غير المسلمين منهم ؛ قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء » .

والمنكر والبغى ، يعظكم لعلمكم تذكرون ، وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ؛ اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

لقد عرف الشرق بروحيته ، وأنه مهبط الوحي ، ومنبع الديانات ، ومبعث النبوات ، وموطن الفضائل ، فيه غرست ، وفيه نمت وترعرعت .

عرف الشرق بهذا ، بينما عرف الغرب بمادته ، وأنه مشرق العلوم ، ومهد الاختراعات ، ومنبع الاكتشافات . وهذا ما حمل بعض الناس على أن يجعل تقدم الغرب نتيجة لمادته وتأخر الشرق نتيجة لروحيته ، فأخذ ينظر إلى الغرب نظرة إعظام وإكبار ، وإلى الشرق نظرة ازدراء واحتقار . وإن نظرة واحدة إلى الشرق : إلى الجزء الممتد منه بين المحيط الأطلسى غرباً ، وحدود الصين شرقاً ، ترينا كيف استفادت الإنسانية من الروحية ، وكيف أثرت الروحية في الاجناس المختلفة ، فأزالت ما بينها من فوارق جنسية ، وقطعت ما بينها من حواجز طبيعية .

فهمه مراکش ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، ومصر ، والسودان ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وتركيا ، وشرق الأردن ، وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، والهند ، وأفغانستان ، وأندونيسيا ، وتركستان : أمم متعددة ، وألسنة مختلفة ، وأنوان متغايرة ، وطبائع متباينة .

ومع هذا قد أصبحت هذه الامم كلها أمة واحدة بفضل الروحية التي أذابت هذه الاختلافات ، فحولتها إلى أمر جامع يدفع الكل بقوة واحدة لا تختلف .

جعلت ساكن مراکش يحس بإحساس ساكن أندونيسيا : يألم لآلمه ، ويفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، كأننا الجميع أسرة واحدة ، بل أعضاء جسم واحد ، إذا شكاه منه عضو تداعى له سائر البدن بالحنى والسر ، يسود الجميع شعور واحد : هو أن الإنسانية وحدة موزعة على أقطار الأرض ؛ فليس لأمة أن تمتد على أرض أمة أخرى ، أو تحاول تسخيرها أو استغلالها أو القسوط عليها ؛ بل يجب أن يعيش الجمع القليل كالجمع الكثير ، والضعيف كالقوى ، في تحرز من الخوف والعوز والعدوان .

ولهذا نجد بين أمم الشرق من التعاطف والنواد ورغبة كل منها في خير الأخرى ما تقر به عين الإنسان .

الإصلاح الاجتماعي

أما الغرب الغالى فى ماديته ، فإنه يبنى المر من ثمارها ، فقد قطعت أوصاله ، وجعلته شيعاً متنافرة ، وأحلت بينها العداوة والبغضاء والحسد ، يتربص بعضها ببعض الدوائر ، ويحاول أن يبنى مجده على أنقاض غيره . وليس هذا بين الأمم التى تباعدت أصولها فحسب ؛ بل بين الأمم التى يجمعها أصل واحد .

فهذه الدول التى تنتهى إلى الأصل اللاتينى فى أوربا ، كالتى تنتهى إلى الأصل الجرمانى ، نرى بينهما من النزاع والصراع ، ما قضى على وحدة الأصل ، وجعل من الأخوين هدوين ، يتخنى كل منهما لأخيه الهلاك والدمار .

إذا حكمنا على الغرب هذا الحكم ، فإن ذلك ليس على سبيل التعميم ، فأنا لا أعتقد أن الأمم الغربية كلها مادية ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا يمكنه أن يكون مادياً صرفاً ، فهناك ما يزال المثل الأعلى للنشاط الإنسانى روحياً ؛ فالأوربى يتفق عمره فى فهم المسارف ، وخدمة الوطن والإنسانية . والمادى مهما غلا فى ماديته لا يمكن أن ينكر أو يتجاهل ما يترتب على عمله من خدمة البشرية .

وقد لاحظت — وأنا فى فرنسا — فى أوساط كثيرة اتجاهها روحياً يزداد على مر الأيام ، ويتسع نطاقه ، وشاهدت كثيراً من المتدينين يصعدون فى أعمالهم عن روح دينية عميقة ، بل شاهدت فى غير المتدينين استعداداً عظيماً لفهم الروحية والاعتراف بفضلها ، والاختذ بها ، ويمتدح الكثيرون منهم أن ما أصاب الإنسانية من الويلات إنما هو نتيجة ترك الدين ، ولهذا أخذ الميل إلى الدين يتجدد ويقوى ، والشعور الدينى يزداد ويعظم فى النفوس إلى حد أن تألفت أحزاب سياسية أطلقت عليها أسماء دينية .

ولما ليسرنا أن نرى الشرق ينهض عاملاً على بحارة الغرب أخذاً بأسباب مدينته بما فيها من مادية لا بد منها ، كما يسرنا أن نسجل للغرب سريان الروحية فى حضارته المادية .

يسرنا أن نرى هذا التوفيق الجديد بين الدين والعلم ، بين الروح والمادة . وهذا يبشر بخير عظيم تجنيه الإنسانية من وراء هذا التوفيق .

التقليد وخطره

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

أ — التقليد ظاهرة اجتماعية .

ب — يكون في الخير والشر ، ولا بد منه للطفل .

ج — يكون من الفرد والجماعة .



من الظواهر الاجتماعية التي نراها في كل عصر وبينة من زمان ومكان ،
ظاهرة التقليد . وإذا كان لكل ظاهرة سبب أو أسباب تظهر بظهورها وتذهب
بذاتها ، فإن السبب الأول للتقليد هو الاجتماع .

إنه إذا اجتمع بضعة أفراد في فصل من فصول المدرسة ، أو عمل من الأعمال
مهما كان ذلك العمل ، وجدنا بعضهم يتبع في بعض ما يعمل البعض الآخر ،
ويكون هذا بدافع المحاكاة التي لا يلتفت أول الأمر لتعاطلها ، أو بسبب ما يحس
به المقلد من ضعف في نفسه ، ومن قوة فيمن اتخذه قدوة له في بعض ما يأتي أو
يذر من أموره .

وقد يجتمع في فرد واحد ، وفي وقت واحد ، هذه الظاهرة وضدها . فعلى
أنه قد يكون الشخص الواحد مقلدا في بعض ما يفعل لآبائه وأسلافه وللعلية
من قومه المعاصرين له ، وإن اعتقد أنه من المستقلين في الفكر والرأي ، ومن
المحافظين على هذا الاستقلال والمعتزين به ، وهذا ، كما هو واضح ، من
الغربة بمكان .

وانضرب لذلك بعض الامثال من تاريخنا المعروف في القديم والحديث :
 جاء الرسول الكريم محمد بن عبد الله بدين جديد يريد أن يقيم عليه عالماً
 جديداً ، غير الاديان التي ألفتها أمم ذلك العصر القديم . وكان هذا الدين يتطلب
 من يريد اتباعه هجر ضلالات الدين الغابر التي كان عليها أسلافه الماضون ، وآبائهم
 ولداً المعاصرون .

وكان أن وازنت فئة قليلة أول الأمر ، بين ما كانوا عليه من وثنية ترين
 على الصدر وتلغى العقل ، وبين ما يدعو إليه الدين الجديد من عبادة إله واحد
 تقوم الأدلة على وجوده ويصل إليه العقل بتفكيره . وخرجت هذه الفئة من
 الموازنة نابذة الماضي وتقليده ، مؤمنة بالرسالة الجديدة .

لكن الأكثرين رأوا أول الأمر أيضاً ، أن في الدخول في الإسلام
 تسفيها لأحلام أسلافهم ، وتخطئة لتفكيرهم ، واتباعاً لفق رقيق الحال ضعيف
 الجانب من فتيانهم ، وإن كان من أشرفهم قبيلة وأوسطهم نسباً . ومن ذلك
 جدوا على ما ورثوه من عقيدة ودين ، مع وضوح ما في ذلك من باطل حتى
 يقول بعضهم :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
 ويقول أيضاً :

فوالله لولا أن نجى بسببتي تجرّ على أسيافنا في المحافل
 لكُنّا اتبعناه على كل حالة من القول جدا غير قول التهازل
 لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

وكانوا مع هذا ، يحسبون أنهم يحسنون صنماً ؛ إذ نأوا بأنفسهم عن ذل
 التقليد وصغار الاتباع .

هكذا ، كانوا يعتقدون ، مع أنهم في واقع الأمر ، إذا حللنا موقفهم إلى
 أسبابه الأولى ، ليسوا إلا مقلدين للآباء فيما ورثوا من دين ، وليسوا إلا بعيدين
 عن الاستقلال في التفكير والرأي ؛ هذا الاستقلال في الرأي والفكر الذي كان
 السبب في سبق من سبق للإسلام ونبت ما كان عليه من دين الأسلاف .

ومن هذا كانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، فيرد عليهم الرسول بقوله : « قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، ا

إذا هذه الحالة وأمثالها ، وإن ظنَّ فيها الاستقلال في الرأي ، هي مما اختلط فيه الجانبان ، بل هي أدنى إلى التقليد ، ومن ثم كان نفعُ القرآن على من تأخر عن الإسلام استمساكا بدين الآباء ، بل إننا نرى أن إسلام كثير من هؤلاء عام الفتح - وقد كثرت المسلمون وقوى الإسلام وأخذ سبيله إلى الانتشار - كان تقليدا أيضا واتباعا للرأي الغالب .

على أنه لا عيب في التقليد في الحق من الرأي والخير من العمل . ذلك بأن التقليد يكون في الخير كما يكون في الشر ، ومن ثم كان أثر القدوة الصالحة الطيبة : والقدوة الطالحة الخبيثة في تنشئة الطفل وتربيته .

يقلد الطفل والناشيء في فجر حياته أبويه وإخوته الكبار فيما يعملون ، وفي بعض ذلك خير كما في بعضه شر . ثم يقلد لداته ورفقاءه في كثير مما يرى منهم . ثم يقلد أخيرا معلميه ويتخذ من بعضهم مثله العليا .

هذا النوع من التقليد : تقليد الصغير في المنزل ، والمتعلم في المدرسة ، والشاب في المصنع ، أمر لا بد منه ولا حيلة فيه . إنه ضروري حقا ليصل الصغير إلى معرفة كثير من الأمور . ثم لينفذ من ذلك إلى تكميل نفسه فيما بعد . وهذا بمعرفة أن له شخصية يجب أن تتكوّن ، وأن تكون مستقلة بمقدار ما يمكن أن يكون هذا الاستقلال ، وبمعرفة أن له عقلا يجب أن يفكر ليدرك أن هذا العمل شر في نفسه ، وإن أجمع عليه أبواه ومعلموه والناس جميعاً ، وأن ذلك العمل الآخر خير في نفسه ، وإن كان قليل الانصار .

والنتيجة لهذا وذاك : أن ينأى عن التقليد وأن يأخذ في الاستقلال في الرأي والتفكير والعمل ، مع الحذر أن يقع في الإغراب فيما يرى ؛ لأنه إغراب ، لا لأنه حق وخير .

ومن الواضح بعد هذا ، أن التقليد في هذه المرحلة بصفة خاصة سنة من سنن الطبيعة لا بد أن نزل على حكمها ، ثم علينا متى تقدمت بنا السن والعقل أن نحد منها ، ونقدر ما نحد منها تتكون الشخصية ويظهر الاستقلال .

والتقليد ، كما نراه في المرحلة أو المراحل الأولى من حياة الفرد الذي لا يزال في دور تكوين الشخصية ، نراه كذلك في حياة الجماعات في أول أمرها ، وفي حياة الهيئات التي تحس من نفسها الضعف ، ويموزها الابتكار والاصالة في التفكير والعمل ، وفي حياة الأمة التي ترى نفسها دون غيرها حضارة ورقيا . وهو في هذا كله قد يكون في الخير ، كما قد يكون في غير الخير ، والمثل لذلك جد معروفة .

ولكن لعل من الطريف أن نشير إلى تقليد كلية دار العلوم لكلية الآداب في الكثير من أمورها ، ثم تقليد كلية اللغة عندنا في الأزهر لدار العلوم ، ثم تقليد كلية أصول الدين لكلية اللغة ، والدور الآن دور كلية الشريعة .

ومثال آخر من تقليد الهيئات والجماعات : كان الأزهر كما نعرف جميعا إلى مفتتح هذا القرن العشرين طبقا في دراساته وامتحاناته ، يتلقى الطالب العلم الذي يحب على من يحب من الشيوخ ، ثم يتقدم إلى الامتحان متى أحس من نفسه القدرة والكفاءة .

ثم أرادت الحكومة وشيوخه إصلاحه كما زعموا ، فأدخل عليه كثير من القيود حتى أصبحنا هذه الأيام ، وإذا به يقلد وزارة المعارف في كل شيء تقريبا ، وبهذا فقد الكثير من أصالته !

أما تقليد الأمة كلها في كثير من أمورنا العامة ، فأوضح من أن يحتاج لأن يُبدل عليه . ومع هذا فإنني أشير لإشارات عابرة إلى أثر ذلك في التعليم والدستور والقوانين ونظم القضاء . وليس يبعد منا ما كان من فرض قانون مدني جديد ، قدمه واضعه بعد أن صاغه من مِرْقٍ مختلفة من قوانين الغرب ، متناسيا أن ما به تصلح أمة في الغرب ، قد لا تصلح به أمة في الشرق لاختلاف ظروف الزمان والمكان والدين أيضا . [للبحث بقية]

بين ياكرك والليث

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير المساجد

— ٢ —

الإمام الليث بن سعد يعتبر مفخرة مصر في أواخر القرن الأول للهجرة :
إذ كان إماماً حجة ثبناً في الفقه والحديث ، كما كان من سادات أهل زمانه حفظاً
وفضلاً وكرماً ، كما اشتهر برفعة القدر وعلو المكانة ، فقد أدرك نيماً وخمسين رجلاً
من التابعين ونهل من علمهم وفضلهم الكثير ، ولم يترك وسيلة في سبيل العلم إلا
أخذ بها ، فقد شد رحاله إلى الحجاز ليغترب من بحار علمائه ، كما طوف بأرض
العراق باحثاً منقياً عن العلم والعلماء ؛ ليضم من علومهم إلى علمه الفياض . وهو
لذلك كان نهماً في العلم لا يشبع ، وظامئاً إلى ورده لا يروى ، وهو في ذلك كله يبحث
عن الكمال في العلم ، والقصد إلى بلوغ الغاية في علوم الدين ، فتم له ما أراد إذ كان
أفضل أهل زمانه فقهاً وحديثاً وحفظاً وفضلاً كما أسلفنا : حتى أصبح إمام مصر
وقعيمها غير منازع .

مولده ونشأته : ولد رضي الله عنه ببلدة قلقيشندة (إحدى قرى مديرية
القليوبية) سنة أربع وتسعين للهجرة . ثم حفظ القرآن الكريم وتفقه على شيوخ
مصر وأخذ عنهم ، ولهم يرجع الفضل في تثقيفه ثم نبوغه في الفقه والحديث ،
فقد كان يقوم عليه علماء المدينة وعلماء الشام وهو شاب فيناظرهم جميعاً ثم يحوز
قصب السبق ، مما جعلهم يعترفون بفضله وغزارة علمه ، ويدعونه إماماً إرهاباً
منهم بما سيأتي به المستقبل .

شهادة الأئمة بسعة علمه : شهد له الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه بأنه أفقه من مالك بن أنس . كما شهد له الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بأنه ليس في المصريين من هو أثبت من الليث بن سعد ، وأنه كثير العلم صحيح الحديث . كما شهد له يحيى بن بكير بذلك ولكن كانت الخطوة لمالك ، وهو فوق ذلك من شيوخ الإمام البخاري راوي الحديث ، وأساتذته . كل ذلك يدل على سعة علمه وعظم فضله ، وعلو كعبه في علوم الدين . ومن رسالته التي سنشرها بعد تؤخذ طريقته التي كان يؤثرها في البحث العلمي .

مكانته عند الخلفاء والولاة : ولسعة علمه ورجاحة عقله وبعد نظره وسديد رأيه كان الامراء بمصر لا يقطعون أمراً دونة ، كما كان يوصي الخلفاء بالآخذ عنه ليقينهم أن ليس في زمانه أعلم منه ، كما أن الحادثة التي وقعت بينه وبين أمير المؤمنين هارون الرشيد تدل على رسوخه في العلم وعلو قدره في الإفتاء : فقد جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا ، ثم كتب إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد ، فسأله قال : إذا أخطى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدني أمير المؤمنين فأدناه ، فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، قال أمسك يا أمير المؤمنين . فأمسك . فقال : قل : إني أخاف مقام ربي ، فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليست بجنة واحدة . عند ذلك سمع التصفيق والفرخ من وراء الستر ، فقال له الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرماً . وأية مكانة لإمام أعظم من هذه المكانة ، وأي قدر أعلى من هذا القدر وأكرم إلا أن يكون صاحبهما الإمام الليث بعلمه وفقهه وبصره النافذ لبواطن الأمور ؟

كرمه وسخاؤه : ولهذا المكانة العظمى التي بلغها في العلم أغدق عليه الخلفاء والولاة العظام : فاكتظت بها داره وامتلأت بها رحابه ، حتى أصبح من ذوى الثراء الواسع والمسال الوافر ، فقد بلغ دخله السنوى مائة ألف دينار ، إلا أنه لم يكنزها ويوصد دونها الأبواب ، بل أخذ يوزعها على الفقراء والمساكين حتى لم تجب عليه الزكاة ، لأنها لم تمض عليها سنة كاملة وهي في حوزته ، بل كان ينفقها في كرم واسع وسخاء منقطع النظير .

أرسل له الامام مالك رضى الله عنه يطلب قليلا من العصفر لصبيغ ثياب تلاميذه ، فأرسل اليه مقداراً من العصفر يقول الامام مالك في وصفه : إنه صبيغ منه ثياب تلاميذه وثيابه وثياب جيرانه وما بقى بيع بألف دينار ، كما أهدى اليه الإمام مالك طبقاً من تمر المدينة فأعاده اليه مملووا بالذهب ، كما كان يهب للإمام مالك كل سنة ألف دينار ، وذلك سخاء دورته كل سخاء ، كما كان مضرب المثل في الكرم والإحسان ، حتى إنه كان ينفق على سبعين بيتاً من بيوت الأراذل ، فيحيل عسرهما وكآبهما يسراً وسروراً ، وقد جاءت امرأة تطلب رطلاً من العسل لمرض زوجها فأمر الخادم بإعطائها قنطاراً ، فقال له يا إمام : إنها طلبت رطلاً . فقال : هي سألت بقدرها ونحن نعطيها بقدرتنا .

كل هذا يدلنا على أنه كان مطبوعاً على الكرم ، مجبولاً على الصفاء والجود ، وأنه كان يمشى في ذلك بحب خالط نفسه واستولى على قلبه ووجدانه جعله يحسن حبا في الإحسان ، ماضياً في ذلك على سنة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم .

ورعه وزهده : ومع أنه كان ينافس الريح كرمًا وسخاء ، كان لا ينال من موائده إلا الفئات ، وهذا منتهى الزهد ، إذ لا يمتنع عن اللذائذ وأنواع الترف ثم يقدمها هدية للناس إلا من بلغ من الزهد غايته ومن التقشف نهايته ؛ ذلك إلى صلاحه الذي يحدثنا هو عنه حيث يقول : « والذي نفسى بيده إنى لأعرف رجلاً لم يفعل محرماً قط ، يعنى نفسه . على أن قول الشافعى في رثائه ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم قبلك : العلم والعمل والزهد والكرم ، يدل على ما طبعت عليه نفسه من التفانى في الله والعزوف عن مفاتن الحياة .

وفاته رضى الله عنه : عمر الإمام الليث حياة طويلة مديدة قضاها في نشر العلم والصلاح والتقوى ، فقد توفي سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، وعمره إحدى وثمانين سنة . رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين والعلم وأهله خير الجزاء .

ورسالة الإمام الليث بن سعد المصرى إلى الإمام مالك بن أنس المدنى آية من آيات النبل ، وسمو الأدب في البحث والمناظرة ، على ما فيها من قرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، ولست تشعر حين تقرأ هذه الرسالة بشيء يمس الكرامة أو تلمح ما يؤذى الشعور .
قال الليث رحمه الله :

« سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد - عافانا الله ، وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة - ، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتانا بجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأجببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فيها جميلا إلا أني لم أذكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أني أفنى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عنكم ، وأنى يحق على الخوف على نفسي لاعتماد من قبل على ما أفنيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ووقع مني بالموقع الذي تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيم فيما اتفقوا عليه مني ؛ والحمد لله رب العالمين الذي لا شريك له .

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما عليهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه

فكما ذكرت وأما ما ذكرت من قول الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجدوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتفوا شيئاً علوه ، وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويحجثون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ؛ بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمراً فسر القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو اتهموا فيه بعده إلا علوه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ، ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال وقد عرفت أيضاً عيب إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة الماطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطروفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعلبكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ويأتى معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برثوة خطوة ، وشرحيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح .

وكان أبو ذر بمصر والزيير بن العوام وسعد بن أبي وقاص — وبمحمص سبعون من أهل بدر وبأجناد المسلمين كلها — وبالعراق ابن مسعود وحذيفة

ابن النيمان وعمران بن حصين ، ونزلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سنين وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبمصر ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم ولي عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والجد في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب إليه زريق بن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين . ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بخاصرة ساكننا .

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شئت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لإمرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، ومن ذلك قولهم في الإيلاء : إنه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف وأن مرت الأربعة الأشهر وقد حدثني نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذي كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الإيلاء الذي ذكره الله في كتابه لا يحل للمولى إذا بلغ الأجل إلا أن يبقى كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون أن لبت بعد الأربعة الأشهر التي سن الله في كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قالوا في الإيلاء : إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقة بائنة . وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب : إذا مضت الأربعة الأشهر

فهي تطلقه وله الرجعة في العدة — ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهي تطلقه ، وإن طلق نفسها ثلاثاً فهي تطلقه . وقضى بذلك عبد الملك بن مروان . وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقول . وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلق نفسها ثلاثاً بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها ، إلا أن يرد عليها في مجلسه فيقول : إنما ملكتك واحدة فيستخلف ويخلى بينه وبين امرأته — ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول : أيسار رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشترأه إياها ثلاث تطلقيات . وكان ربيعة يقول ذلك . وإن تزوجت المرأة الحرة عبداً فاشترته فمثل ذلك — وقد بلغنا عنكم شيئاً من الفتيا مستكرها وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي فتخوفت أن تكون استغفلت ذلك فتركت إليك في شيء مما أنكره .

وفما أوردت فيه على رأيك وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة فأعظمت ذلك : لأن الخطبة في الاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداءه ثم نزل فصلى . وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو ابن حزم وغيرهما ، فكاهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه .

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول في الخليطين في المال أنه لا تجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة . وفي كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان ذلك يعمل به في ولاية عمر ابن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدارن أفاضل العلماء في زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره .

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول : إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشتري طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان

الناس على أن البائع إذا تفاضى من ثمنها شيئاً ، أو أنفق المشتري منها شيئاً فليست بعينها .

ومن ذلك أنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والامة كلها على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقيا لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن يذبح لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالفه الامة أجمعين .

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله لإياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استثناسي بمكانك ، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندي ، ورأي فيك فاستقمينه ، ولا تترك الكتابة إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لاحد يوصل لك فيأتي أمر بذلك . كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله .

الجود

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصطناع المعروف بقي مصارع السوء » . وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها ، أي رديئها .

قال الحسن والحسين رضي الله عنهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت في بذل المال . قال بأبي وأمي أنتما ، إن الله قد عودني أن يتفضل علي ، وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني .

وقال المأمون لمحمد بن عبد الله المهلبی : أنت متلاف . قال : منع الجود سوء الظن بالمعبود ، يقول الله عز وجل : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » ، وهو خير الرازقين .

لغويات

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار

الاستاذ بكلية اللغة العربية

الاذن الايسر، والاذن الايمن

يذكر هذان التعبيران في تشرح القلب . وهما ترجمتان لتعبرين أفرنجيين . فالاذن الايمن ترجمة Oreillette droite ، والاذن الايسر ترجمة Oreillette gauche في الفرنسية . والذي يعنينا في هذا الموطن التنبية على أن صيغة الاذن بالتذكير لا تصح في العربية ، وأن الواجب فيها الاذنية . وذلك أنه يراد تصغير الاذن ، والاذن مؤنث البتة ، فلا بد من اختتام مصغرها بالناء ، كما يقال في تصغير عين : عينة وسن سُنينة . فالوجه أن يقال : الاذنية اليمنى ، والاذنية اليسرى ، ومن أعلام العرب أذنية ، وهو تصغير أذن سمي به مصغرا ، ولو سميت رجلا بأذن ثم صغرت فقلت : أذن إذ إنك إنما صغرت مذكرا ، كما لو سميت رجلا بعين ، تقول في تصغيره : عُيَيْن ، قال سيديويه في الكتاب : . وإذا سميت رجلا بعين أو أذن فتحقيقه بغيرها ، وتدع الهاء هنا . . . ويونس يدخل الهاء ويحتج بأذنية وإنما سمي بمحقر ، وأذنية من ملوك العماليق . وعروة بن أذنية شاعر غزل رقيق أموي ، وكان مع هذا من العلماء والمحدثين في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يقول في الغزل :

إن التي زعمت فؤادك ملتها خلقت هواك ، كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

وهذه الايات من غزل حماسة أبي تمام .

لفته إلى الواجب عليه

يرى القراء هذا الاستعمال كثيراً في المقالات والأخبار ، وفيه قرن اللفظ ومشتقاته بالحرف إلى ، ويراد توجيه الشيء نحو أمر معين . وفي اصطلاح الدواوين عبارة : لفت نظر الموظف ، ويراد به تنبيهه على هفوة فرطت منه ، وإنذاره ألا يعود إليها .

ويرى بعض المعنيين بالعربية إنكار هذا إذ لم يرد في المأثور عن العرب ، ولا ذكره أصحاب المعاجم . وإنما الوارد قرن هذه المادة بالحرف عن ، ويراد حينئذ الصَّرف والتَّسْنِي والي . فيقال لفته عن السفر أى لواه عنه وصرفه . وفي الكتاب العزيز في سورة يونس : « قالوا أجمعنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لنا الكبرياء في الأرض وما نحن لك بمؤمنين » .

ويبدو أن معنى الصرف عن الشيء في هذه المادة جاء من قبل الحرف عن ، ولا موجب للزوم هذا الحرف ، وإن وردت المادة به ، فإذا قرنت المادة بالحرف إلى كان معناها التوجيه والتسديد : وذلك أن اللفظ في الأصل الصرف والي ، يقول في المصباح : « لفته لفتنا — من باب ضرب — : صرفه إلى ذات اليمين والشمال ، وأنت إذا صرفت إنساناً نحو شيء فقد وجهته إليه . وكما أن الصرف يقرب من وإلى فكذلك اللفظ الذي هو بمعناه . وما يؤيد ذلك ورود التفت نحوه ، والتفت إليه ، والتفت مطاوع لفت ، وورود المطاوع فرع أصله ، فهو دليل عليه . وفي اللغة أفعال يختلف معناها بالحرف ، من ذلك رغب . يقال : رغب فيه ورغب عنه ، وعدل ، وتولى ، يقال : تولى الكافر عن الإيمان ، وفي الكتاب العزيز ثم تولى إلى الظل .

وما يستأنس به في هذا المقام قول أبي العلاء المعري :

أقر السلام على عبد السلام فلي جيد إلى نحوه ما زال ملفوتا

فتراه استعمل ملفوتا مع إلى ، وملفوت وصف من لفت . وأبو العلاء من هو في البصر بالعربية والبجح بها وإحسان تأثيرها واحتذائها .

تفضلتم سعادتكم بمنحى كذا ، تفضلوا سعادتكم بقبول التحية
يجرى هذا الأسلوب في مقامات الخطاب إظهارا لمرتبة المخاطب وتسكريمه ،
ودرجته في الشرف والمجد في هذا العصر .

فيقال لمن كان من ذوى المكانة الدينية : أمرتم فضيلتكم ، ولصاحب المقام الرفيع :
أمرتم رفعتكم ، ولمن كان من الوزراء : أمرتم معاليكم ، ويقال : أمرتم عزتكم
أو سعادتكم لمن يتمتع برتب خاصة في سُلَّم الرقي والسمو في الحياة الاجتماعية .
وقد مضت السُّنة في العربية أن يخاطب العظيم بالحديث منه كآتة غائب ولا
يواجه بالخطاب . فكان يقال : يأمر أمير المؤمنين لى بكذا ، أو يبذل لى الأمير
كذا ، كأنما العظيم أرفع أن يالله المتحدث بخطابه ، فهو في منزلة سامية لا يسمو
إليها أحد ، فإنما قَصُره أن يتحدث عنه كأنه غائب . ويمدّ البلاغيون هذا
المقام من مواطن لإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . ولو جرى الأمر
على هذه السنة العتيقة ل قيل : تفضلت سعادتكم أو أمرت فضيلتكم أو رأيت
معاليكم ، أو تفضل عزتكم بقبول التحية وهكذا . وإسناد الأحداث إلى السعادة
والحضرة والمعالى مجاز عقلي معروف أمره وقد احتذى هذا الأستاذ أحمد
السكندري عليه رحمة الله ورضوانه ، فهو يقول في الاحتفال بافتتاح الدور الثاني
للجمع اللغوى : ^(١) « تعرف حضراتكم أنه لا يتسنى لآية جماعة أن تعمل عملا
متواليا بدون طريقة توحد عمل أفرادها ، وهذه الطريقة يمكن التخريج عليها مع
الفعل المضارع نحو تفضلون حضراتكم ، بإجراء الكلام على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة
بالليل وملائكة بالهار فحضراتكم فاعل والواو علامة الجمع نحو تفضلوا سعادتكم .
وقد استحكم الأسلوب الذى صدرت به المنال في أقلام الكتاب ، ويكاد
يكون من العسير نفيهم عما اعتادوا ، وصرفهم عما درجوا عليه ، فلا مناص من
تخريجه وبحته من ناحية العربية .

وهنا يعرض للباحث مسائل في هذا المجال — تفضلوا سعادتكم — فهل
سعادتكم مرفوع أو منصوب ؟ وإذا كان مرفوعا فما رافعه ، وإذا كان منصوبا
فما ناصبه ؟

لغويات

٥٢١

ويبدو أنه يجوز الوجهان : الرفع والنصب .

فالرفع على أن « سعادتكم » بدل اشتغال من الضمير . ومن المقرر في النحو أن إبدال الظاهر من ضميرى الحاضر — ضميرى المتكلم والمخاطب — يجوز في بدل الاشتغال ، كقول الشاعر (١) :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفتنى حلى مضاعا

فقوله حلى بدل اشتغال من الياء فى ألفتنى وهى ضمير المتكلم . ومن هذا قول النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنما لئرجو فوق ذلك مظهرنا

فقوله : مجدنا بدل اشتغال من الضمير « نا » ، وهو ضمير المتكلم . ومن أمثلة ابن مالك فى الألفية : إنك ابتهاجك استملا ، ولا يعترض على هذا التخريج بأن الفعل فى تفضلوا أمر وهو لا يرفع الظاهر لأنه يغتفر فى الثوانى مالا يغتفر فى الأوائل ، أو أن العامل محذوف مدلول عليه بما قبله أى ليتفضل كما قيل فى قوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » ، والوجه الأول أجدر بالاتباع ، فرب شئ يصح تبعاً ولا يصح استقلالاً .

ولا يصح أن يخرج سعادتكم على أنه عطف بيان . وذلك أن عطف البيان لا يكون ضميراً ولا تابعاً للضمير ، لأن عطف البيان فى الجوامد نظير النعت فى المشتقات فكما لا ينعت الضمير لا يعطف عليه عطف بيان فهذا توجيه الرفع .

وأما النصب فإنه يكون على الاختصاص . فسعادتكم نصب بفعل محذوف وجوباً تقديره أخص . والمختص هنا مضاف على حد قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

(١) نسه سيبويه فى الكتاب إلى رجل من بحيلة أو خثعم ، وتبعه ابن السراج . وعزاء الفراء والراجح إلى عدى بن زيد . قال صاحب الغزاة : وهو الصحيح . وانظر الكتاب ص ١٨ ج ٢ والغزاة ٢/٣٦٨ .

ميناء الإسكندرية ميناء جميلة

قد يرى القارئ استعمال الميناء مؤنثاً . وفي كتاب المطالعة للدارس الابتدائية - وهو عمل جليل من الاساندة - في الحديث عن السويس ، ولها ميناء تُسمى " بور توفيق " ، والمعروف في الميناء أنه مذكر . قال في اللسان في ونى : " والميناء : مرفأ السفن ، يمدد ويقصر ، والمد أكثر . سمي بذلك لأن السفن نبي فيه أى تفر عن جريها ، فتراه أعاد الضمير عليه مذكراً . وبما يقطع بتذكيره قول كثير عزة - أورده في اللسان في المادة - :

فلما استقلت ملناخ جاهلها وأشرفن بالاحمال قلت : سفين
تأطرن بالميناء ، ثم جزعنه وقد لج من أحمالهن شحون
فقوله ملناخ أى من المناخ . وقوله : تأطرن أى تذهبن وتعطفن ، وجزعنه :
قطعنه ، ولج ، هكذا في بعض التراجم في اللسان وفي بعضها لج بالحاء المهملة أى ضاق
وازدحم ، وشحون قال ابن سيده : يجوز أن يكون مصدر شحن ، وأن يكون
جمع شحنة نادراً ، وشحنة السفينة ملها ، والبيت الثاني من وصف سفين كما ترى ،
يشبه الجبال عليها الرحال ، وهى تسير في الصحراء في سهولة ويسر بسفين مشحونة
بالمناخ تثبت بالميناء ثم قطعنه . فترى كيف رجع الضمير على الميناء مذكراً في قوله :
ثم جزعنه .

كثرة اللثام

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " .
وقالت الحكماء : الكرام في اللثام كالغرة في الفرس .

وقد بالغ ابن حازم فقال :

وقالوا لو مدحت فتى كريماً فقلت وكيف لى بفتى كريم
بلوت ومر بي خمسون حولاً وحسبك بالمجرب من عالم
فلا أحد يعد ليوم مولد ولا أحد يعود على هديم

عَلَى هَامِشِ الْأَدَبِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الازهرية

دعا داع أن ارتاض في رياض الادب العربي القديم ، والادب العربي فينان
الغياض بهي الرياض ، طرائفه تطرب الاذن ، وتمتع العين وتخفف لوعة الملتهع ،
وتجلى لهم الحزين وتملأ صدره بهرد العزاء والصبر . على أن فيه الحكمة الحكيمة
السائرة في البوادي والامصار ، الدائرة مع الاهداس والاجيال ، يتمثل بها
الحاضر والبادي ، ويطرب لها رب الفسفة والشادي ، فهي حكمة الفطرة وثمرة
الامتحانات والتجربة .

وقد انتهى بي المطاف إلى ركن من أركانها أتوسع شذاه وطاب نشره ؛ فأغرى
الطرف به والتملى من محاسنه ، فأطلت الوقوف عنده التماسا للبتعة الادبية ، واقتناصا
للغائدة العلمية ، ثم أحسست بالرغبة في الحديث عنه : ذلك هو ركن الطغرائي في
رياض الادب العربي ؛ والطغرائي كما يعلم الادباء ، شاعر له مكانه في تاريخ الادب ،
فهو شاعر مشرق الديباجة رصين اللفظ قوى المعنى واضح الغرض موفور الحكمة ،
شاعت حكمته في شعره وبخاصة في قصيدته المعروفة بلامية العجم ، وما أخذ
الطغرائي مكانه بين الشعراء ، ولا شاع ذكره وعلا قدره إلا بها .

والطغرائي هو الذي يقول :

وأكثر الناس من تشقى بصحبته	ومصطفى النار لا يخلو من الشرر
تشابهوا في طباع الشر بينهم	على اختلاف من الأهواء والصور
فلا تروض لإنصافا وقد شهدت	مخالب الليث أن الظلم في الفطر

والعيش كالماء قد يصفو لشاربه حيناً ويشرب أحياناً على السكر
حنأ عليه فلما طاب موردنا أقامنا الخوف بين الورد والصدر

• • •

وليس من قصدى في هذه الكلمة أن أترجم للطغرائي ، وأعدد أغراضه التي طرقها في شعره وسجلها في ديوانه ، فذلك لون من الحديث صار مكرراً ممولاً ، وإنما المقصد من حديثي إلى تسجيل بعض الخواطر التي عرضت لي أثناء قراءتي شرح الصفدي على لامية الطغرائي ، وقد لا يعلم كثير من الناس أن هذه اللامية قد حظيت بعناية العلماء والادباء قديماً وحديثاً ، ولست أعني بهؤلاء علماء العربية وأدباها خُشب ، ولكنني أفني بهم مع ذلك علماء الإفرنج وأدباهم فقد ترجمت إلى اللغة اللاتينية مراراً ، وتناولها علماء العربية بالتعليق والشرح ؛ فصار لها كثير من الشروح في عصور مختلفة ومن أشهرها : الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، للصفدي .

ولا شك أن لامية العجم قطعة أدبية خالدة بحكمتها ، رائعة بمعناها وفنها الأدبي لا يكاد يخطئك في كل بيت منها تشبيه رقيق أو مجاز دقيق ، أو استعارة موفقة أو كناية معجبة ، ولا يفوتك في جملتها نوع من أنواع البديع المعروفة ، ولكنك تعجب إذ ترى الصفدي يصمت عنها ويطول صمته حتى نهاية شرحه ، فلا يشير إلى شيء منها ، وعهدنا بشراح الأدب أن يجعلوا من شروحهم فرصة للتنافس ، وبجالات التطبيق العلمي والدلالة على المقدرة الفنية ، وصنيعه في الناحية اللغوية صنيعه في الناحية البلاغية ، وسلوكه فيها سلوك الخائف الخذر المتوقع لهجوم العلماء ولوم النقاد ، وطريقته اللغوية في شرحه أشبه شيء بطريقة أصحاب المعاجم ، فهو يشرح اللفظ بالفظ مثله لا يكاد يتجاوزه .

وليس كذلك طريق اللغويين الأدباء كالبرد والعالى ومن على مذهبهم ، فهم يقرنون التفسير بنظيره توضيحاً له وإبانة عنه ، وما يلاحظ على الصفدي في شرحه إيجازه في عباراته من معاني الآيات ، وتناوله لإياه تناول ضعفة المترجمين الذين يستبدلون اللفظ بالفظ آخر ، غافلين عن حسن الصياغة وانسجام العبارة ، والفق

الأدبي للآليات ، وقد حاول أن يمد ذلك النقص فاستعان في بيان المعاني بما يشابهها في شعر الشعراء ونثر الكتاب ، فاستطرد واستطرد وكأنه في ذلك يحاول أن يقنعنا بمكانه من الأدب والأدباء فأخطأه التقدير .

قصور الصفدى في هذه النواحي في شرحه للامية وهي العناصر الضرورية في شرح الأدب ، ومقياس الأدب في الأدب ، يسوغ لنا الحكم عليه بالتخلف عن صفوف الأدباء ، فإذا أضيف إلى ذلك ما شغل به نفسه من الفضول والاستطراد إلى ذكر فصول من علوم قد يتصل بعضها بالأدب ، فيمكن الاعتذار منه كالتبحر والصرف ولا يتصل بعضها الآخر بالأدب كالفلسفة والفلك والطب ، فيضعف وجه العذر منه صح حكمتنا عليه بما ذكرنا .

وثمة أشياء نأخذها على الصفدى ، ويشترك في مؤاخذته ببعضها جمهرة الناس ، ويحس الأدباء خاصة ببعضها الآخر ، فما يشترك العامة في استهجانها لمخافات الذوق وصلته بالآداب العامة تعرضه للأدب المكشوف وتكلفه له رواية وإنشاداً .

وليس بنا حاجة إلى ذكر شيء منه هنا ، وما يحسه الأدباء ويضيقون به تكلفه السجع وحرصه عليه ، حتى جاء أكثره مستكراً مرذولاً ، يدفع بعضه بعضاً ، وينكر أواخره أوائله ، وجملة ما ذكره من شعر الشعراء استطراد خفيف في ميزان الأدب ورابطته به رابطة ضعيفة ، وما أبعد الأدب عن الاستعارات المستغلقة والكنائيات البعيدة ، وعن أنواع البديع تقسر على مواطئها قسراً ، وتمتكره على أماكتها استكراهاً ، ليظفر قائلها بلقب الشاعر أو الكاتب ظلياً وزوراً .

هذه خواطر بدت لي أثناء قراءة شرح الصفدى على اللامية ، وهي تبين مكان الشرح من كتب الأدب ، كما تبين مقدار دقة صاحب كشف الظنون في صحة حكمه عليه إذ يقول : وشرحها لامية المعجم ، الصفدى بشرح سماه الغيث الذي أنجم في شرح لامية المعجم ، بشرح ذكر فيه شيئاً كثيراً على طريق الاستطراد فصار شرحاً مشحوناً بغرائب الجدل والهزل وأحسن المجاميع .

فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا عن هذا الشرح : إنه ليس شرحاً أدبياً كما يفهم
الادباء من شروح الأدب ، وإنما هو مجموعة من طرائف الأدب ، جده ومزله
وفصول من علوم شتى أكثرها من علم النحو ، أضاف بعضها إلى بعض لأدنى
مناسبة كما يقول النحويون ، وهي بعمل الاخبار من الحفاظ أشبه منها بعمل
الاديب ، وهي مناسبة كل المناسبة لتكوين الصفدى واستعداده الشخصى ، فالصفدى
مؤرخ أخبارى حافظ مكانه بين المؤرخين والحفاظ ، لا بين الادباء ، فقد ألف
في التاريخ كثيراً ، وجمع في غيره من الفنون ، إلا أن ناحيته التاريخية ، أظهر
وهوبها أشد .

وقد توفى الطغرائى سنة ٥١٣ هـ . وتوفى الصفدى سنة ٧٦٤ هـ رحمهما الله
ورحم أسلافنا خدمة العلم ، وأسبغ عليهم من رضوانه ، وأستغفره من خطئى
وسوء تقديرى .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

البخل

قال زياد : كفى بالبخل عاراً أنه اسم لم يقع في حمد قط ، وكفى بالجود مجداً
أنه اسم لم يقع في ذم قط .

وقال شاعر :

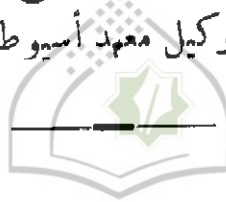
ألا ترانى وقد قطعنى عدلاً ماذا من الفضل بين البخل والجود ؟
إن لم يكن ورق يوماً أراح به للخاطبين فإني لين العود
لا يعدم السائلون الخير أفعله إما نوالاً وإما حسن مردود
يريد بالورق المال والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله العائبة
أى الحيوانات التى تسبب لا تؤكل ولا تتركب وفاء لنذر ، لجعل الشاعر طالب
الرزق مثل خابط الشجر لإسقاط ورقه .

في مشاكل المجتمع :

طالب العلم

بين ماضيه وحاضره

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوي
وكيل معهد أسيوط



طالب العلم الديني في ماضيه من اتجه إلى المعارف الإسلامية برمته ، وأقبل عليها إقبالا تاما لا يصرفه عن ذلك محاولة دنيا يصيها ، أو امرأة يتعرض لها ، أو فتنة تلميه عنها ، قد اتخذ من مسكنه معهدا لا يفتقر فيه عن التحصيل . ومن مراحه ومغذاه إلى العلم السبيل ، ومن خلق الإسلام والتصوف عدة وعوناً ، ومن الحرص والجد وصحبة الشيوخ والتمسح بهم منجاة ومسلكا ، قد ذل طالبا فعز مطلوباً . واستغنى بالله والعلم فأسمى محبوباً .

ويظل يصفى للحديث بأذنه وبقلبه ولعلمه أدري به

ومكثا كان أبناء الأزهر تخرج بهم رجالا من الذين سعدوا وسعد بهم تاريخه ، كانوا من خبايا الدهر فأصبحوا يحكمون على الدهر ، كانت أسر الكثرة منهم فقيرة مغمورة فصاروا لها مجدا .

وكم أب قد هلا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

فليت شعري ما الذي رفع هؤلاء ، ووصل بهم إلى ذلك المجد الشاخ ؟ إنه العلم والتحصيل والدرس الطويل ، والاحتياال لصيده العلم وجمعه في نهم مقبول .

أولئك الذين كانت تفتحهم الأبصار ، وتنبو عنهم الأنظار ، هم الذين سعدت بهم الملوك فلم يحل عيشهم إلا في رضاهم ، ولم يسترو حوا روح الجنة إلا في معشرهم ، ولم ينفضوا غبار الألم من الدنيا وتغلبانها إلا في خلس العيش معهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليس .

لقد طالما وفد على الأزهر الكريم قوم شرح الله صدورهم للإسلام ، خاطهم بلطفه وصنعهم على عينه ولفتهم إلى وجهه ، فنظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وعشقوا العلم عشقاً أنحل أبدانهم وقرح أجفانهم ، وجافى عن المضاجع جنوبهم في تنافس حميد وتعاون مجيد ، ثبت على الحق أقدامهم وحبس على البحث والنقيب أنظارهم ، مجالسهم خلق العلم حول شيوخهم يتلقطون فيها الدرر ، ويمخضون فيها الفكر ويباركون فيها الإنسانية ويدرحون بها الهيمنة ثم يقومون وقد ملأوا الأوعية معارف ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وميزهم به هلى كثير من عباده المؤمنين : فإذا آبوا إلى مثابهم فما أسعد الأوبة ، إنهم يتعجلون بما يقيم أصلابهم : ليعودوا إلى ما به تعلقت قلوبهم ، فيجددون خلق العلم بعضهم مع شيوخ يتطوعون بتدريسهم فيما هم بسبيله ، وبعضهم مع بعضهم ليرشخوا أنفسهم لدروس الغد ، حتى يستطيعوا أن يعوا عن الشيوخ ما يقولون ، ليرسخ في أذهانهم ، ويحتل مكان الخلود في عقولهم ، والعلم صعب يعوزه الأخذ والرد والمد والشد ، وهم بعد تلك الخلق في جهاد أنفسهم يستعيدون ما جمعوا ، ويستزيدون مما أخذوا ، والعلم بحر لا ساحل له لا يحل إعطائك حتى تحل سؤاله .

فهل أولئك الذين كانوا يربطون أنفسهم في سوارى المسجد خشية أن يقصدهم النعاس ، وسل أولئك الذين كانوا يتناوبون النوم حتى لا يستغرقوا في الغفلات ، وسل أولئك الذين كانوا يهبون في ساعات الصفر بالأسحار ، يتعرضون لنفحات الله ، ويجلون قلوبهم بالتماس رضاه ، حتى تنطبع فيها الحقائق ، أو سل عنهم لتعلم مبلغ جهادهم وأنهم ما وصلوا حتى بذلوا ، وما نالوا إلا بعد أن جالوا وصالوا ، ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل ، على أنهم قد أخلصوا لاساتذة كرام قد محضوهم النصيحة ، ونفحو لهم لباب الشريعة ، ووفروا أنفسهم للاستزادة من العلم والمعرفة شراباً مختلفاً ألوانه ، يياكرونها بالغذاء العقلى ، ويبادلونها ذلك الحب

السماء ، فحبب الاساتذة لابنائهم توفرت أسباب التمحيص ، واجتمعت وسائل الإفادة المثمرة ، وعبدت سبل العلم وعذبت مناهلة ، وبحب الابناء أساتذتهم خضعت نفوسهم وخشعت قلوبهم ، وتقبلت عقولهم ، فأفادوا معارف مباركة ميمونة ، لقد أسلموا قيادهم لارائك الشيوخ ، واستسلموا منهم كل صعب ، واستحلوا منهم كل مرير ، حتى كانوا يرضون منهم ما يرضى العبد من سيده ، وحتى كانوا يتسابقون إلى أخذتهم يحملونها ، ويرون في ذلك الفتح والسعادة لأن الذل في هذا السبيل هو العز كل العز .

كان لطلاب الازهر كما يقول الأستاذ الزيات كلف به لا ينتهى ، وثقة برجاله لاتحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبلغون من ورأه غير فقه الدين ونحصيل المعرفة ، وتجديد حبب الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قاذون بميسور العيش ، لا ينصرفون من حلقات التعليم بالقاهرة : إلا إلى حلقات التعليم في الريف . وطلاب الازهر القديم اليوم لا يزالون يذكرون ما لشييوخهم من الحب والتجلة ، كانوا يتحلقون حول حلق الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الامام عراك وصخب ، حتى إذا ما أقبل الشيخ خشعت الاصوات وسكنت الحركات ، حتى كأن شيئاً علق بالأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ، وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الازهر (١) .

لقد كان الطلاب يتنافسون في العلم ، ويكاثرون بالعلم ، ويفرحون بالعلم وينتصر بعضهم على بعض بالعلم . ويتناقلون فيه ما يقول بعض واصفيه .

سهرى لتقييح العلوم الذلى من وصل غانية وطول عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة خير من الدوكات والعشاق
كان الجامع الازهر في جميع أوقاته كعبة لا ينقطع وافدها ، ولا الدوى بالعلم في جميع أرجائها ولا تخلو من قارئ وناظر ، ومكب هلى الدفاتر ، ورا كع وساجد . فجزاهم الله بما صبروا أن بدل ذلم عزا وفقهم غنى ، وضعفهم قوة ، وجعل كتبهم العليا ، وأخضع لهم الدنيا فلسان حالهم .

ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أو مانا إلى الناس وقفوا
وقد أدركنا من ذلك العهد الكريم جانباً ، واتصلنا ببقية صالحة من كانت
أسماءهم تجلجل ، وذكراهم تدوى حتى ملأت سمع الأرض ، ولقد كنت بمن
يحرصون على التمسح بهم ، والتزاحم على دروسهم ، قبل دروسهم وأنا أتمثل .
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان من أولئك حضرات الائمة الاعلام طيب الله ثراهم : الشيخ محمد بنحيت
المطيعي ، والشيخ محمد حسين العدوي ، والشيخ يوسف الدجوي ، والشيخ
السالموطي ، والشيخ سيد المرصفي رضي الله عن الجميع وأحسن جزاءهم ، فكنت
أوفر من صفوة حياتي زمناً أسمع فيه منهم وأخذ عنهم ، وكان يجمعني مع شيوخ
الثلثة لهم ، وانهاز الفرصة في بقائهم ، تقديراً لما حملوا من علم غزير ، وإيماناً بما
وصلوا إليه من معارف قد تعز بقتدهم .

وكان والدي رحمه الله ينهج نهج أولئك الائمة ، فيدأب على خدمة العلم
في المسجد وفي المنزل ، وفي المدينة والقرية ، ويحملني على صحبته والاختلاط به ،
وحضور دروسه التي كان يعقدها في أشهر الاجازات في الفقه والمنطق والبلاغة
وغيرها ، وغرس ذلك في نفسي معاني لا تزال أبكي على فقدها في أبنائنا اليوم ،
أولئك الذين صرفتهم شواغل المجتمع الصاخب حتى صغرت وطالهم ، وخلت
عقولهم ؛ وصدأت قلوبهم ، فاستنقلوا العلم وجافوه وصاروا يشكون في غير
شكوى ، وينفرون في غير نفرة ، ويحاولون أن يحملوا أنفسهم على المجتمع حملاً
- أصلح الله بهم ، ورد إليهم رشادهم - إنهم يشكون أحياناً من مناهج الدراسة .
وصعوبة الكتب لأنهم لا يوفونها حقها من التفرغ والإقبال . وقد كنا نحضر
لأول عهدنا بالعلم أوجه إعراب البسملة على جميع وجوهها ، مما تعني به أفهامنا ،
وتضيق عنه مداركنا ، ولكننا نحمل أنفسنا عليه ونحفظ ما أعني فهمه ؛ حتى يحين
وقته ، ما يحول ذلك دون الصبر والرضا والإيمان بمعظم المطلوب .

فالذنب إذاً يا طلاب العلم ، ليس ذنب المناهج ، ولا طرق التعليم ، وإنما هو
ذنب التشاغل والتكاسل ، والقذف بأنفسكم في ذلك المجتمع الصاخب ، هو ذنب
الغرور والطيش من أبنائنا الذين يزعمون أنهم يملكون قيادة الأمور ، ويدبرون

دفة الشئون ، والتحكم في مصائر الرجال والحكومات بإسقاط أو لإنهاض ، وإلا فن للدرس والتحصيل ، ومن للتهدب والتكامل ؟ وإن كتب الأزهر بالذات كتب مركزة ، وثقافات عالية مركبة ، ومجموعة يدخل بعضها على بعض . ويحتاج بعضها إلى بعض ؛ فن قصر في شيء منها بدا ضعفه وظهر عجزه .

أما نحن فما كنا نفكر في تلك المناهج ؛ بل كنا نحاول أن نطلب المزيد وتنافس في ذلك ، لنصل من قلوب الاساتذة إلى موضع الحب كل بقدر طاقته ، وكان لنا أستاذ بحثة في مادة الأصول ، وكان يعلم مقدار حرصه على القراءة والاستزادة ، فربما جاء قبل البدء في الدرس ، فسألني عن رأي في مسألة ، وعما قرأت فيها من المواد لعاشه يجد عندي مزيداً يزيد بهدى ، فإن العلم بحث وتمقيب ، ولقد كان لذلك أثره في تربية ملكة الاستقلال وفي تكوين الشجاعة المهذبة الحميدة ، وفي إطالة النفس في المناقشة البريئة .

كان لنا أستاذ يشار إليه ويعول في علوم الشريعة وفي مادة الأصول عليه — شفاء الله — وكان يقرأ لنا كتاب الأحكام في الأصول ، فرأى يوماً أن في الكتاب خطأ مطبعياً بزيادة كلمة « لا » أو نقصها — لا أذكر بالتحديد — وكنت قد فهمت الكتاب على وضعه ولم أشعر فيه بخلل . فناقشت شيخى وكنت قليل المناقشة جداً ما لم يلح الداعى إليها ، وطال أمد المناقشة حتى ردعنى شيخى ، فسلمت في أدب وحياء وأنا مقتنع بفهمى ، فلما كان اليوم الثانى جاء الشيخ ، وكان أول ما بدأ به أن سأل عنى ، فلبيت دعوته الكريمة ، فبسم لى ونهل فى وجهى ، ودعا لى بخير ، ثم قال : الحق ما قلت فتضاعف خجلى ، وزاد تقديرى لشيخى ، على أنها كانت وسام شرف ، وشارة فخار أنزلتنى من نفوس إخوانى أكرم منزل .

ولئن ذهبت أسرد لك أيها القارىء الكريم كثيراً من مظاهر الحرص والدأب فى عهدنا ، وهو عهد قريب لرأيت العجب ولرأيت لما صارت إليه الحال اليوم من إغراض وصدود ، ومن جرأة واستهانة بالواجب .

باطلبة العلم ! لعل كثيراً منكم قد قرأ ما وصف به الهمزانى العلم ، وهو وصف يعجبني كثيراً إذ يقول : « وجدته بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى فى المنام ، ولا يضبط بالعجام ولا يورث عن الأعمام : فتوصلت إليه بافتراش

المدر واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الحظر، وإذمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ورأيته لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس، وطائر لا يخذعه إلا قنص اللفظ، ولا يملقه إلا شرك الحفظ، فحررته بالدرس، ثم استرحت من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى التعليق، واستغنت هلى ذلك بالنوفيق، .

ياطلبة العلم انحن الآن في زمن نراكم فيه كما قال الاول :

فلسنا كعمد الدار يأأم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

ولانه ليحز في نفسى ويبكىنى لكم، أن أحاطت برقابكم السلاسل، من تلك الشواغل فتوليت في الامة الشئون، وشغلتم أنفسكم بما كان وما يكون، حتى ضاع العمر سدى، ومضت فترة الشباب بددا، لقد غرکم أن تسمعوا النناء ممن لا يعنيه أمرکم ولا يرجو مستقبلکم، فهل يرضى أحببکم من أهل وعشيرة أن تنفقوا العمر في ذلك الفضول، وأن تنحرف بکم عن الجادة خابطات الميول؟ لا لعمر الله !.

ياطلبة العلم ! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فزكاها وكلمها، جددوا خلايا العلم في عقولکم قبل أن تأكلها الجهالة، وأزيلوا الران عن قلوبکم لا تفنك بها الضلالة !. لا تعملوا للنجاح في الامتحان، فإن علم الامتحان كالسراب ليس بشيء مستقر؛ ولكن اعملوا للنجاح في الحياة كما كان أساتذتکم الذين أنبأتکم بعض أنبائهم .

يا ليت شعري متى نزول هذه الأسداد التي صدت أنبائنا عن سبل العلم الصحيح، والثرية الصالحة المشرقة، ويا ليت شعري متى تدركنا عناية الله سبحانه فنعود بالطالب إلى تلك النفس الزكية، وتلك الشخصية العامرة بالدين، المعترزة بالله رب العالمين، المثرية من معارف الإسلام والأدب، الحافلة بمختلف علوم العرب؛ فيطلب العلم للعلم، ويأخذه عن الاشياخ الذين سلكوا سبيله فعرفوا أصيله ودخيله، وأخضعوه بسكثرة الرد، واستحوذوا عليه بعد طول مد وشد؛ حتى يقرؤا عين الزمن، ويشدوا بحق أزر الدين والوطن .

اللهم لطفا بعيالك طلاب الأزهر معقل الدين وعلوم العرب؛ فبصرهم بالحق، واهدهم إلى الرشd ولا تحق عليهم كلمة الجهل يوم تقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جمالا فاسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

اللهم أقشع عنا هذه الغيابات. وتدارك بألطافك الخفيات. يا أرحم الراحمين متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه المرارويل؟

غلبة عالم سني على المأمون

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المنعم الصميدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

قد عاد للفلسفة تقديرها في الأزهر وكنياته ، وصارت تدرس فيه دراسة جديدة تخضع للنقد الحديث ، ولا تتأثر بشيء من التعصب الذي كانت تلقاه الفلسفة قديماً ، فعرف للفلسفة فضلها في النهوض بالأمم ، وعرف للفلسفة فضلهم في الاجتهاد في النهوض بالعلم ، ونظر إلى أخطائهم في الفلسفة كما ينظر إلى كل خطأ من البشر ، فكل من ينظر ويفكر يصيب ويخطئ . ، ولا يصح أن يمنعنا خطؤه من الارتفاع بصوابه ، ولا أن يحملنا على مجافاة العلوم التي وقع فيها ، إذا كانت نافعة لنا ، ولا يمكننا الاستغناء عنها .

وكان المأمون بن الرشيد يعرف هذا الفضل للفلسفة ، فأقبل على طلب علومها من مواضعها ، واستخرجها من معادنها ، وأتحف في سبيلها ملوك الروم بالهدايا الخطيرة ، وطلب ما عندهم من كتب الفلسفة ، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، فاختر لها مهرة المترجمين ، وكلفهم بنقلها إلى العربية ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فتفتحت سوق الفلسفة في زمانه ، وتنافس في علومها أولو النباهة في عصره ، لما كانوا يرونه من تقديمه لأصحابها ، واختصاصه بأهلها ، فكان يخلو بهم ، ويأنس بمنظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية ، وفي عهده كان نقل فرع الإلهيات من الفلسفة إلى العربية ، وكان النقل قبله مقصوراً على الطبيعيات والرياضيات ، فتكاملت بهذا أقسام الفلسفة ، وقد كان الفيلسوف قديماً لا ينال هذا اللقب إلا إذا أحاط بها كلها .

وقد كان المسلمون في ذلك الزمن منقسمين إلى أهل سنة ومعتزلة ، وكان مذهب الاعتزال مذهب بعض الخاصة في الدولة ، أما مذهب أهل السنة فكان مذهب كثير من الخاصة ، كما كان مذهب جمهور العامة ، فوضع المعتزلة أيديهم في يد المأمون ، ولم يروا فيما يقوم به من ذلك خطرا على الدين ، أما أهل السنة فرأوا في هذا خلاف ما يراه المعتزلة ، وتجاؤا من أجله المأمون ودولته ، وأخذوا ينفرون العامة منه ، ويؤاؤونهم عليه ، حتى اشتد العداء بينه وبينهم ، ووصل إلى نهايته في مسألة القول بخلق القرآن ، فقد اتخذها المأمون فرصة للتشكيل بأهل السنة ، وكان في الحقيقة يشقى غليله من مناوئتهم له في موقفه من علوم الفلسفة .

وهنا يبدو غريبا أن يكون لواحد من أهل السنة أكبر سلطان في دولة المأمون ، فيخرج هذا السني على إجماع أهل مذهبه طائعا مختارا ، ويرضى المأمون أن يكون له في دولته ذلك السلطان ، مع أنه كان يميل في دينه إلى مذهب المعتزلة والشيعة ، وهذا إلى إثاره مذاهب الفلسفة وشغفه بها ، وكانت في ذلك الوقت من أشد ما يفتته أهل السنة .

ولكن هذا الذي يبدو غريبا هو الذي كان ، وإذا كان يبدو غريبا في ذلك الزمن فإنه هو الذي كان يجب أن يكون فيما نرى الآن ، وقد كان ذلك العالم السني هو الإمام العظيم أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قحطان بن سميان بن مشنج التميمي الأسدي المروزي ، من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب في الجاهلية ، وكان الإمام يحيى يمثل من هذه الناحية في الإسلام ، وعنه ورث ذلك الفضل والنبيل ، وتلك البراعة والكياسة .

وقد ترجم له ابن خلكان فقال : كان فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي رضى الله عنه . وقال الخطيب في تاريخ بغداد : كان يحيى بن أكثم سليما من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنة ، سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة ، وغيرهما ، وروى عنه أبو عيسى الترمذي وغيره ، وقال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه : يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ، وقد اشتهر أمره ، وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس

فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ،
واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن المعارضة ، قائم بكل معضلة .

ثم ذكر ابن خلكان مبدأ اتصاله بالمأمون فقال : أراد المأمون أن يولي
رجلا على القضاء ، فوصف له يحيى بن أكثم ، فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ،
وكان دميم الخلق ، فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى ، فقال : يا أمير
المؤمنين ، سئلت إن كان الفصد على لاخاقي . فسأله عن المسألة المعروفة في
الميراث بالمأمونية ، وهي أبوان وابنتان ، لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين
وخلفت من في المسألة ، فلما سأله عنها قال له : يا أمير المؤمنين ، ألميت رجل
أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة : فقلده القضاء . وهذه المسألة
إن كان الميت الأول رجلا تصح المسألتان من أربعة وخمسين ، وإن كانت
امراة لم يرث الجسد في المسألة الثانية شيئا ، لأنه أبو أم . فتصح المسألتان من
ثمانية عشر سهما .

فلما اتصل يحيى بن أكثم بالمأمون غلب عليه ، حتى لم يتقدمه أحد عنده من
الناس جميعا ، لأنه عرف بما برع فيه من العلوم من فضل يحيى وما هو عليه من
العلم والفضل ما أخذ بمجامع قلبه ، فلم يقتصر على تقليده قضاء القضاء ، بل قلده
تدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد مطالعة
يحيى بن أكثم ، حتى قيل : إنه لا يعلم أحد غلب على سلطانه في زمانه إلا يحيى بن
أكثم ، وأحمد بن أبي دواد ، وكان يحيى من أهل السنة كما سبق ، وكان أحمد من
زعماء المعتزلة ، وهذا من حسن سياسة المأمون ، إذ كان يقصد من هذا أن يرضى
بسياسته الحزبين الكبيرين في دولته ، فاختر منهما ذينك السياسيين العظيمين ،
وقد سئل بعض البلغاء عنهما أيهما أنبل ، فقال : كان أحمد يجحد مع جاريته وابنته ،
ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

وقد كان ليحيى بن أكثم مع المأمون مواقف نفيلة دافع فيها عن مذهب أهل
السنة ، ونفعهم فيها بحسن سياسته وكياسته ، وأهمها هذان الموقفان :

١ — حدث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون في طريق الشام ، فأمر
فئودي بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء : بكرا غدا إليه ، فإن

مجة الازهر

رأيتما للقول وجها فقولا ، وإلا فاسكتنا إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك ، ويقول وهو مغتاظ : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه ، وأنا أنهى عنهما ! ومن أنت يا جعل - يعنى عمر - حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله عنه ! قال : فأروا أبو العيناء إلى وقال : رجل يقول فى عمر ابن الخطاب ما يقول نكلمه نحن ! فأمسكتنا حتى جاء يحيى بن أكثم ، فجلس فجلسنا .

فقال المأمون ليحيى : مالى أراك متغيرا ؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام . قال : وما حدث فيه ؟ قال : النداء بتحليل الزنا . قال : الزنا ؟ قال : نعم ، المتعة زنا . قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : ، قد أفلح المؤمنون ، إلى قوله ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، يا أمير المؤمنين ، زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا . قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ، ولها شرائطها ؟ قال : لا . قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين ، وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين ، روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها . فالتفت إلينا المأمون فقال : أمحفوظ هذا من حديث الزهرى ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين ، رواه جماعة ، منهم مالك رضى الله عنه . فقال : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة . فنادوا بها ، وكان ليحيى بهذا يوم فى الإسلام لم يكن لاحد مثله .

٢ — كان ثمامة بن أفرس وغيره من زعماء المعتزلة قد زينوا للمأمون أن يكتب بلعن معاوية رضى الله عنه ، فهم أن يكتب بذلك كتاباً يقرأ على الناس ، فحفل العامة من ذلك ، ولم يشبهه عنه إلا يحيى بن أكثم ، فإنه دخل عليه فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم فقرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ؟ والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ، وأحرى في التدبير . فركن المأمون إلى رأيه ، وأعرض عن لعن معاوية ، ولم يستمع لثأمة وغيره من المعتزلة .

فيا ليت علماء أهل السنة كلهم وقفوا من المأمون هذا الموقف الذي آثره يحيى بن أكثم ، فلو أنهم وقفوا ذلك الموقف منه ، لاجتمعوا على خطة نافعة للمسلمين فيما آثره من علوم الفلسفة ، ولسارت هذه العلوم بخلوص النية من الفريقين في طريق قاصد لا إفراط فيه ولا تفريط ، فاستقامت بها أمور المسلمين وسبقوا بها أوربا بنحو خمسة قرون ، فكننا نحن السابقين الآن بهذه القرون وكانت هي اللاحقة ، ولم تكن هي السابقة الآن ونحن اللاحقون .

ولكن جمهور أهل السنة آثروا أن يقفوا من علوم الفلسفة موقف العداء ، ولم يحاولوا أن يجتمعوا فيها على رأى وسط هم والمأمون ، إلى أن أتى المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، قال إلى مذهبهم فيها ، ونهى الناس عن النظر والجدال ، وأمرهم بالنسليم والتقليد ، ومنعهم من الاشتغال بالفلسفة ، فانتقل الحال فيها من الإفراط إلى التفريط ، وحرّم المسلمون في أمرها من الطريق الوسط الذي كان فيه خيرهم ، وكانت فيه مصلحتهم في دنياهم وأخراهم .

حكم منشورة

قال حكيم : إذا قدرت على عدوك ، فاجعل المغفر شكراً للقدرة عليه .

قيمة كل امرئ ما يحسنه . وقال الحسن محمد بن لنكك البصرى :

عدياً في زماننا عن حديث المكارم

من كفى الناس شره فهو في جود حاتم

وقال أبو الطيب المتنبي :

لإنالني زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

عمر بن الخطاب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا أقصد بهذا العنوان الحديث عن «عمر بن الخطاب» من الناحية التاريخية، فأعني بتسجيل أعماله، وتسرد وقائعه، وتعداد أياديه على العمران والحضارة والنظام والإدارة، والسياسة والملك، فإن ذلك كله مبسوط على أكل وجه من البسط والبيان، والشرح والإيضاح، لا يعوزه أن أزيد فيه حرفاً، أو أضيف إليه كلمة، ولا سيما مع شهرة صاحبه في الخالدين، ونباهة شأنه في العالمين.

وإذا كان لأصحاب الفنون غرام خاص ببعض الصور يستهوى فنهى ويثير إلهامهم ويوقظ عبقريتهم؛ ليجعلوا منها ظلالاً، ويضموا إليها ألواناً، ويقفوا منها موقفاً يبعث على الدهش والعجب، والغرابة والتأمل، فإن المتأدبين الذين يخلقون من «الحبة قبة»، يجدون في هذا الرجل مجالات فسيحة ومعاني رائعة ونواحي بارزة توحى بالكتابة الخصبة، وتعطى أمثلة من خير ما تكون الأمثال جمالاً وحسناً. وليس ذلك في عدله النادر وذكائه اللامع، فربما كان في المعاصرين له أو المتأخرين عنه من كان يدانيه إن كان لا يساويه أو يحرق في مضماره ويرسم لآثاره وغريزة «التقليد والمحاكاة»، تحمل على أن يحى الحافر على الحافر، والقدم في موضع القدم، ولهذا يقول الرسول صلوات الله عليه: «لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حرجب ضب خرب لدخلتموه».

ولا غضاظة على الشخصية الشامخة أن يكون لها قدوة تأخذ بيدها إلى حيث تسمو إلى الغاية المرموقة، وتصعد إلى القمة العالية، ويحلق في أفق من العظمة بعيد...

وحديث المتحدثين عنه يتبدى من حيث ينتهى ، وينتهى من حيث يتبدى ،
أشبه بكتاب ضخ ، وسفر عظيم ، تروك صحائفه أينما قلبتها ، وتأخذك سطوره
كلما قرأتها ...

لذلك فلا تكون الكتابة فيه إلا ، على الهامش ، لا تصيب كبد الحقيقة
بتقدار ما تحوم حولها ، وتدور في محيطها ، ثم لا يمدد القارئ أن يرى منها
أطيافا من تلك الصورة التي أبدعها الخالق البارئ ، وأجاد صنعها اللطيف الخبير .
وأول ما يحملك على تقديس عمر واحترامه ذلك المعنى الذي لا يتأتى في
الكثير ولا في القليل لأبطال الفتح ، وعظماء الإصلاح ، وهو الثقة المتناهية
بنفسه إلى درجة أن يعرضها على مشرحة ، النقد العام ، إذ يقول في خطبة من
خطبه : « إن رأيتم في أعرجا فقوموه ، كأنما يتحدى المعاندين ، ويقطع الحججة
على الجاحدين ، وهى منزلة من الإيمان لا يصل إليها إلا من زكت نفوسهم ،
وطهرت أرواحهم ، وخلصت سرائرهم ، وعمرت قلوبهم بالله سبحانه ، ومتى بلغ
المسلم هذا الحد سخر من الحياة ومظاهرها الخلابية ، وزخرها بالكاذب ، ومناعها
الخادع ، وسرابها المغرى .

وهكذا كان يفعل حين يبعث بالعامل أو القائد ويوصيه بالتقوى والعدل ،
 ويفهمه أنه لم يرسل به إلى أحد ليظلم أو ليقسو أو ليكون جباراً في الأرض ..
ولعل من سيرته أصدق شاعد للقيام بالتوسط المطلوب في الآية ، ولو على
أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، فإنه كان قاسياً على ولديه — عبد الله وعبيد الله —
حينما علم أن أبا موسى الأشعري اختصمها بمال من خراج العراق يتجران فيه
على أن يدفعها الأصل ويأخذ الربح ، وأمرهما أن يردا الأصل والربح ، حتى
لا تحوم الشبهة حوله ولا حول أحد من أهله .

والناس يتحدثون في هذه الأيام عن قانون ، من أين لك هذا ، ويذكرون
أنه رضى الله عنه أول حاكم حاسب عماله وكبار المسؤولين في دولته عن ثرواتهم
من أى طريق اكتسبوها ، فإن اطمأن إلى أنها من غير جاههم المجلوب ،
وسلطانهم المكسوب ، أقرهم على الملكية ، وترك لهم سبيل الاستحقاق ،
ولا جعلها غنيمة للشعب في بيت المال ..

وهناك جانب من جوانب حياته ينبئ عن الثورة المتوثبة ، والطموح المتطلع ، وددت لو تيقظ له الكاتبون في تاريخ الأفراد والجماعات ، ليعرفوا منه إلى أى مدى كان هذا الخليفة صلباً صلابته لا تجعله إمعة من الإمعات ، ولانكسة من النكسات ، يتقاد من غير تبصر ، ويقلد دون تفكير ، فما كان يفعل الفعل ، ولا يقدم على الأمر ، إلا وقد تجلت له خوافيه ، ووضحت أعجازه وهواديه . وفي قصة إسلامه وكيف كانت عصييته للشرك ، ورسوخ قدميه في الكفر ، ثم تحول ذلك كله إلى غيرة على الإسلام ، وتمسك بالقرآن وحجاسة للنبي وإعلاء لكلمة الله وإشاعة للذعر والخوف والجبن والضعف والبأس والرهبة في قريش التي كانت تصد عن الدعوة ، وتكيد للمؤمنين ما يدل على أن القلب الكبير ، والنفس العالية ، والبيئة الصالحة ، إذا ما نمت فيها الخراس ، وأبغى الثمر ، وأورق الشجر كانت جنة تجري من تحنها الأنهار ، وهو يذكرنا ببعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم حين يصور ما بعثه الله به من الهدى والعلم بالغيث الكثير الذي أصاب تربة تقيّة . قبات الماء فأنبئت الكلاً والعشب وفيه عبد الله بن مسعود إذ يقول فيه : كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة والإيمان الذي ملأ نفسه حتى فاض من جوانبها ، هو الذي حمله أن يقف من على بن أبي طالب هذا الموقف العنيف الشديد لما تلاكأ عن مبايعة أبي بكر ، غير ناظر إلى قرابته القرية من النبي وزواجه بابنته ، وهو — كذلك — الذي جعله يقيم الفتنة ، ويتمضى على جرائم الشر ، فيمد يده إلى ابن أبي قحافة ليقتل الناس على أثره مبايعين ، ثم يظل كالجندي المجهول في معاونته ، مكتفياً بقوله له ، كلما بدا سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وصواب وجهته ، ورشاد أمره . لقد كنت أولى بها مني يا عمر . .

وأحب ألا يغفل العصريون من أنصار حرية الرأي أو التجديد هذا الرجل كإمام من أئمة هذه المذاهب ، ولكنه في حدود معقولة ، لا تسكرها الفلسفة ، ولا يابأها المنطق ، أو يتجافها العلم الصحيح ، فإنه مع نزول الوحي ، ووجود النبي يهيم على التشريع ، ويصرف شئون المسلمين ، ويقضى فيما يجدلهم من نزاع ،

ويحدث من خلاف ، ويطرأ من مسائل ، يأتي إلا أن يناقش النصوص ، ويعترض على الأحكام ، ويرى الرأي ، ويقترح في الدين الاقتراحات ، ويحيى جبريل موافقاً له ، فيشير ذلك إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يسهه إلا أن يقول : لو كان في هذه الأمة محدثون لكان عمر .

وإذا كان التجديد من المتأخر لا من المتقدم ، فقد كان غريباً أن يكون وابنه عبد الله على طرفي نقيض ، يتمسك الوالد بالرأى إذا انقده في ذهنه وامتلأ به يقينه وربما عطل النص معه وتناهى الآية في سبيله ؛ كما حدث في عام الجماعة ويقف الولد عند النص لا يحيد عنه ولا يجاوزه إلى سواء ، ويبالغ في ذلك حتى يستظل بشجرة الرضوان لأن عندها كانت المبايعة المعروفة باسمها ويكرن قطع أبيه لها إيلاماً له وشديداً عليه .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

الدنيا

ذم رجل الدنيا بحضرة على رضى الله عنه فقال له :

« الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنها ، ونادت بفراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؟ فيا أيها الزام لها المعلن نفسه بغرورها ، متى خدعتك الدنيا ، أم بماذا استذمت إليك ؟ أبصرع آبائك في البلى ، أم بمضجع أمهاتك في الثرى ؟ كم مرضت بكفئك ، وكم عللت بيدك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف الأطباء ، غداة لا ينفعه بكأوك ، ولا يغنى عنه دواؤك ! »

أعلام الأزهريين

الشيخ حسين المرصفي

المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية

هو الشيخ حسين المرصفي نسبة إلى مُرصفا ، بلدة بالقلاوية أنجبت بجمهرة من أعلام الفقه واللغة والأدب ، وكان والده الشيخ أحمد حسين المرصفي ، من أئمة العلم في عصره .

ولد المترجم له في مصر ونشأ بها ، وبعد أن أتم حفظ القرآن التحق بالجامع الأزهر ، فتلقى العلم على كبار شيوخه ، وما زال يلدُ ويبحث حتى صار من العلماء للفعول ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر أمهات الكتب في العلوم العربية كغنى اللبيب في النحو لابن هشام .

وكان رحمه الله مكفوف البصر ، وقد عرف منذ صغره بحدة ذهن ، وتوقد الذكاء ، وإذا صح ما قيل من أن والده حفظ القرآن في ستة أشهر فإن ذكاه موروث عن أبيه ، وكان إلى جانب ذلك جاداً مثابراً شديد التوافر على كتب الأدب يرتوي من محاسنها ، ويستظهر من روائعها ، لم يسترح إلى الأدب الشائع في عصره ، ولم يرقه نهجه ، بل كان من أوائل من تفتنوا في هذه البلاد إلى قدر الأدب القديم ، (١) .

وكان من حبه للأدب العربي القديم ، وقدرته على تفهم أسرار ، وتذوق بلاغته ، يقرأ كثيراً في كتب البلاغة العربية ، ودواوين الشعراء الفحول . وي بذل جهده في استظهار ما يهتزله ، ويحبل قلبه على غرار ما بهره من هذه الآداب حتى استقام له بيانه الرصين .

وكان إلى جانب هواه بالأدب شديد الميل إلى العلوم العربية ، دائم البحث في أسرارها وتفهم دقائقها واكتناه خفاياها حتى صار في العلم بها حجة ثبثا .

وقد قرأ الخط العربي والفرنسي في أقرب زمن مع انكشاف بصره وهو حروف اصطلاح عليها اصطلاحاً جديداً تدرك بالجلس باليد ، (١) .

وتولى تدريس الأدب وعلوم العربية بمدرسة دار العلوم وتخرج على يديه طليعة الناهضين من أبنائها الشعراء والأدباء .

أثره في النهضة الأدبية :

د الشيخ حسين المرصفي ، شيخ الأدباء في ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ؛ فقد تخرج عليه طلائع النابهين في هذه المدرسة من أمثال حفني بك ناصف وأترابه .

وكان قبلة الشعراء والأدباء ينهلون من علمه وأدبه ، وينتفعون بتوجيه وإرشاده ، صاحبه ولازمه أعيان البيان العربي فعرضوا عليه منظومهم ومشورم ؛ فنقح ما شاء له ذوقه وعلمه ، وهذب كثيراً من بيانهم ، وراضهم على ما تهدي إليه من الأدب العربي القديم الرصين .

انتفع بتوجيهه عبد الله فكري باشا ، فكان أحد تلامذته الذين أفادوا منه . بل إن البارودي ، نفسه وهو زعيم النهضة الشعرية ورافع لوائها في العصر الحاضر كان أحد تلامذته الذين صاحبوه ولازموه ، عَلم المرصفي زعيم الشعراء اللغة العربية الفصيحة ، وهداه إلى الأساليب المجودة الفحلة ، وعرض عليه شعره فهذبته قريحته التي صقلها الأدب العربي وطبعها بطابعه الجميل ، وإن لصلته

(١) للخطط التوفيقية - ١٤ ص ٤٠ .

البارودي به لحدوثنا طريفاً تمر به مراعاة ولكنا أنضنا فيه حيث تكلمنا عن شعر الأزم وكيف أن الأزميين كانوا أساتذة زعماء الشعر في العصر الحاضر .

وكان من أثره في الأدب فصوله الممتعة التي كان ينشرها في صحيفة « روضة المدارس » ، فقد رسم بها للأدب أمثل الطرق في ممارسة البيان العربي الجزل ، وكان قدوة الكتابين بطريقة الذب التي تجمع بين الجزالة والسهولة .

أما أسلوبه فطلي رصين ، واضح فصيح ، لا يلم بالسجع إلا لماساً ، ولا تستهويه الصيغة التي يكلف بها أصحاب الأدب الفغارغ فيسترون بزخرفها نقص أدبهم وفراغه ، وهو في سلاسته وترتيبه المنطقي أقرب ما يكون شهاً ، بآبن خلدون ، في مقدمته ، فهو بحق « من أوائل الافذاذ الاعلام الذين ردوا على اللغة في العصر الحديث ما كان لها من الهاء القديم في العصر القديم » (١) .

ومن حديث المرحوم « الشيخ عبد العزيز البشري » ، عنه قوله : « يقوم ذلك المكاتب الاديب المجدد حقاً فيلقت جمهرة الادباء من ذلك الادب الضامر ، ويوجه أذهانهم وأذواقهم جميعاً الى الخالص المتخل من أدب العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم ، ويبعث لهم شعر أبي نواس وأبي تمام والبحرئ وغيرهم من خول الشعراء ، كما يدل على بيان ابن المقفع والجاحظ والصولي وأحمد بن يوسف وأضراهم من متقدمي الكتاب ، فسرعان ما يصفو البيان ويحلو ، وسرعان ما يحزل القول ويعملو ، وسرعان ما تنفجر آفاق الكلام ، وتنسبط أسلات الأفلام في كل مقام ؛ وناهيك بغرس يخرج من ثماره إبراهيم المويلحي في الكتاب ومحمود سامي البارودي في الشعراء » (٢) .

آثاره ومؤلفاته :

ألف كتاب « الوسيلة الادبية للعلوم العربية » ، وهو كتاب جليل القدر لا يستغنى عنه أديب ، وقد شاع الانتفاع بما فيه من الآداب والعلوم ، ولا يزال متجعجع الادباء الى يومنا هذا ، والكتاب جزآن يقع الثاني منهما في صفحات تربى على ثلاثة أمثال الجزء الأول .

(١) المنتخب من أدب العرب - ٢ ص ٥٨٣ هامش .

(٢) المختار - ١ ص ٤١ .

« والوسيلة الأدبية ، مجموعة من الآداب والعلوم المختلفة من نحو وصرف و فقه لغة و بيان و معان و بديع و تاريخ ، ساقها المؤلف لتعليم الكتابة الإنشائية و ترويض الملكات البيانية على غرارها و نهجها العربي الصحيح .

وهو يتبع في هذه الكتابة طريقة الشرح والإفاضة والتتابع والاستطراد ، فإذا ألم يبحث على وقتي جوانبه ، وبسط في آفاقه ، ولم يدع فيه ما يحتاج إليه الباحث المتعقب ، وإذا أورد قصيدة أو رسالة أو خطبة شرح معانيها اللغوية شرحاً دقيقاً متمكناً ، ثم بين مراد الأديب بما قاله ، وتعرض له بشيء من أخباره وآثاره ، وقد يستطرد فيقرن المعنى بمشابه له أو مقارب منه أو مضاده ، يفيض في كل ذلك بأسلوب رصين واضح فصيح .

وقد عمد فيما اختاره من آثار أدبية إلى روائع الأدب : من شعر ونثر وخطب ورسائل ، فهو حسن الذوق في كل ما يهتدى إليه ، غزير المادة بما يفيض فيه ، قريب الشبه في مسلكه بالكتب التي هي أصول للأدب من أمثال « الأمل » ، و « الكامل » ، و « العقد » ، إلا أنه لم تغلب عليه ناحية خاصة تستأثر به ، وتدعه ضعيفاً في غيرها مما يقوم عليه بحثه وشرحه ، ونقده وتعليقه ، وإنما هو في هذه النواحي جميعاً المتمكن الذي يعدل بينها .

والوسيلة بجزئها تتضمن تمهيداً وأربعة مقاصد ، يشتمل كل منها على فصول ومقالات ، فالتمهيد في بيان فضل العلم وتقسيم العلوم وتعريفات لعلوم العربية والأدب مع إفاضة بذكر الأمثلة ، والمقصد الأول في العقل وشرح أنواع المعقول ، والمقصد الثاني في تعريف اللغة وبيان الداعي لوضع علوم العربية ونهايته نهاية الجزء الأول ، والمقصد الثالث وهو أول الجزء الثاني يحتوي فنون البلاغة بإسهاب وشرح وإفاضة مع دقة وتحليل ، والمقصد الرابع وهو أوسع المقاصد وأكثرها بسطاً : يتضمن المكتبة والتربية الأدبية والأدعية التي جرى السلف على استعمالها في مكاتباتهم ، وفي مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ومكاتبة الملوك والأمراء والأدباء وفي الأمثال العربية وغير ذلك من البحوث الأدبية الممتعة ، وقد ختم الجزء الثاني بكلمة ضافية عن المرحوم عبد الله فكري باشا . ومن أهم ما حواه الجزء الثاني حديثه عن البارودي الشاعر العظيم .

والكتاب مطبوع بمطبعة المدارس الملكية بمصر من سنة ١٢٨٩ - ١٢٩٢ هـ .

وله كتاب «الكلم الثمان» : وهو رسالة شرح فيها كلمات جرت على ألسنة الناس في عهده ، وكثر ترديدهم لها ، ولهجوا بذكرها بما دعاه إلى بسطها وتبينها كلفظ «الامة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية والإنسان والمربي» ، وكيف يجب أن يكون وما به تكون التربية ، كتبها بأسلوبه الرصين الرشيق ، وهي مطبوعة بالمطبعة الشرقية بمصر سنة ١٢٩٨ .

وله أيضا كتاب «دليل المسترشد في الإنشاء» : وهو كتاب وضعه لتعليم طرق الإنشاء وأساليبها ، وكيفية افتتاح المراسلات والمكاتبات والموضوعات الإنشائية المختلفة ، وأورد فيه طائفة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ومكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتب خلفائه الراشدين إلى القياصرة والأكامرة والعرب خاصتهم وعامتهم ، وجمهرة من القصائد والمقاطع مشهورى الشعراء من الطبقات الأولى الثلاث .

والكتاب يتضمن مقدمة تحتوي ما يحتاج إليه المنشىء من معرفة مبادئ العلوم وتمييز بعضها عن بعض ، ثم يحتوي بحوثا قيمة في تعريف الكتابة وبيان طرق التعليم والأغراض التي يحاول المنشىء أن تحسن بها صناعته ويجود بها إنشاؤه ، والكتاب مخطوط لم يطبع .

نماذج من إنشائه : كتب في التخلق ببعض الأخلاق فقال :

« غير خاف أن التخلق بالكبر والخيلاء والمجب ، والتعظيم على الناس بما أفضله الله به على الإنسان ، من علم وجاه ومال أمر غير حسن ، لما جبلت عليه النفوس من الإباء والنفرة عن تعظيم غيرها ، فأكثر ما يُبدل حسن الود والتآلف ، بأشنع العداوة والتنافر ، لكن لذلك موضع يكون فيه حسناً .
وبيانه : أن من المشاهد كون النوع الإنسانى محتاجا في حسن تعيشه ، وتحصيل أغراضه إلى ألفه ومودة وإنصاف ، بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، فإذا خرج بعض الناس عن الجمية ، وسعى في الأرض بالفساد ، وجب على الناس تأديبه بما يعيده إلى الصلاح ، وربما كان التكبر والزهو عليه أنكى له وأرجى لمثاب فكره ، وانحيازاه إلى حيز الاستقامة ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فارساً من أصحابه يمشى بين الصفيين مختالاً ، يميل يميناً وشمالاً . فقال : هذه مشية يكرهها الله تعالى إلا في هذا الموضع ، فقد علمنا أن للتكبر موضعاً يكون فيه حسناً . »

من ضلالات الشعوذة :

مَعْرِفَةُ الْغَيْبِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

الإيمان الحق حين تخالط بشاشته القلوب ، وتمازج طهارته الأفتدة ، وتسطع أشعته على البصائر فتتماوؤها نوراً وحكمة .

هذا الإيمان يهدي الناس في حياتهم إلى النهج الواضح ، ويدلهم على السبيل اللائح ، ويفرس في أعماقهم الثقة برب العالمين ، والاطمئنان إلى عدالة أحكم الحاكمين ، ويخلص عقائدهم من الزيغ والضلالات ، ويظهر نفوسهم من الأوهام والخرافات ، ويحذرها من البدع والآفات .

ومحال أن يصبح إيمان في نفس مؤمن ثم يلنوى قصده ، ويضطرب نهجه ، وتختل حياته .

أما حين يضعف الإيمان في النفوس ، وبين سلطانه على القلوب ، وتقل ثقة الناس بخالقهم ، وتختل حياتهم فترات صدود عن الأعمال ، والنصراف عن الواجبات ، فإن الأوهام تجد فيهم حينئذ مرتعاً خصياً ، وتصادف لديهم مجالاً رحباً .

والدارس لطباع الناس وعاداتهم ، والناظر فيما يشيع بينهم من المعتقدات والتقاليد ، يرى أن البدعة لا تقوى إلا عند ضعف الإيمان ، وأن الخرافة لا تنأصل جذورها إلا عند قليل الثقة بسنة الله في السكون .

من الأوهام الضالة الخبيثة التي توارثها الناس جيلاً بعد جيل ، وخضعوا لها خبيلاً إثر قبيل ، والتي أثرت أسوأ تأثير في حياتهم وأعمالهم ، وجعلت أمورهم

تعتل ، وأوضاعهم تختل ، وأفسدت عليهم عقائدهم وتفكيرهم . اعتقاد كثير من الناس أن في بني آدم من يستطيعون استشفاف الغيب ، واستكناه المجهول ، واستطلاع ما وراء الحجب ، مما يستعجلون معرفته ، ويشتهون الوقوف عليه ، بل إن فيمن لم يهذبهم العلم الصحيح ، والمعرفة الناضجة ، من يعتقد أن في بعض الناس من يقدر على التحكم في مجرى القدر ، واتجاه القضاء ، فيحولونه من نحس إلى سعد ، ومن شؤم إلى ين ، ومن سوء حظ إلى حسن طالع ، وأن فيهم من يستخدم الجن في قضاء المصالح ، وتدبير الأمور ، وشفاء المرضى ، وإسقام الصحيح ، وتوثيق الصلة بين اثنين ، أو فصم عرى المودة ، وبتر أسباب الالفة بين المتحابين . وأنهم يستطيعون أن يسهلوا للناس ما هسر من أمرهم ، ويسروا عليهم ما شق من أمور الدنيا ومظاهر العيش ، وهكذا بما لا يقبله منطق ويسیغه عقل ، ولا يقره إدراك صحيح وتفكير مستقيم .

وأول ما يبده الإنسان في هذه المشكلة التي أختبت الناس إليها ، أن من أضفوا عليهم هذه الألوهية أناس يحفونهم حسن السمات ، وجمال المظاهر ، وعلائم الاستقرار والاستغناء . فهم من شظف العيش وكلب الفقر ، وقذارة المظهر ، وشقاء الحياة على جانب كبير . فهل من المعقول أن يسعف هؤلاء الناس وهم أشقياء ؟ يجلبون لهم أسباب النفع أو يدفعون مظاهر الضر ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ! أما كان الأجدر هؤلاء الدجالين المضلين أن يستغلوا عليهم في رفاهية أنفسهم ونعيمها وكفايتها ، بدل أن يعيشوا على هذا الاتجار الرخيص والارتزاق الدني .

في كل ناحية من نواحي الحياة نجد لهذه المعابث والضلالات أثراً قبيحاً ، نجد رضى بها ، واستسلاماً لها ، أفسد على الناس أمرهم ، وكدر صفوهم وأخروهم أشنع تأخير .

في الأمراض ، في المنازعات والقضايا ، في الحب والبغض ، في الخل والولادة ، في إطالة الأعمار ، في الارتزاق ، في كل شيء يحرص عليه المرء نحمد الخرافة الشاذة قد تسربت إليه وعدت عليه ، ونجد الناس قد لجؤا إلى من يلتقط لهم غيب

السماء ويستشف لهم علم ما في الغد ؛ بل ويحمل طيرهم يحرق يميناً ونحوهم تتحول إلى سعود .

إن الشاعر الجاهلي الذي لم يدرك ديناً ، ولم يسطع عليه الإسلام بنوره كان يقول :

وأعلم لهم اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي
واقه تعالى يقول : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، ويقول جل شأنه :
« قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ولو أدرك هؤلاء البسطاء ما يصيبهم من شر ، وما يدخل على حياتهم من اضطراب وخلل من جراء هذه الأوهام الضارة وهذا الصغار المفقوت لاشفقوا على أنفسهم من هذا الضلال المبين .

ولكن الجاهل حين يعمى القلوب ويظلم الضمائر ، يسبب للحياة الفساد ، ويضيق عليها العذاب والشقوة ؛ وبدلاً من أن يطلب الإنسان غذاء ويهتدى إلى حاجته من الطريق السوي الذي شرعه الله وهو الجهاد والعمل ، يهمل السعي ويتردى في هوة الكسل ، لأن رجلاً من الدجالين الذين مرضت قلوبهم ، وخربت ضمائرهم وران الجاهل والظلام على نفوسهم ، يستخدم له الجن في فتح أبواب الرزق وتيسير سبيل الغنى ، وهكذا يظل نائماً في ضلاله ، بمعنا في خداعه حتى يتمكن منه الفقر ويقنله اضطراب الحياة .

وقد يركب بعضهم سبيل الظلم ، ويعمد إلى الإضرار بالناس ، والتأدي في خصوماته ، لأن نصيباً من هؤلاء وعده باستخدام الجن في التأثير على القضاء ، ويمرض المريض فلا يظهر من الرغبة في استدعاء الطبيب بمقدار ما يتهاقت في استفتاء هؤلاء المشعوذين .

ولقد يسرق بعض المتاع من بيت ، فلا تكون هناك حيلة ولا توجد وسيلة ، إلا أن يلجأ أصحابها إلى دجال يكشف لهم عن الغيب ، فربما أشار بحمله إلى جار أو دل بسوء ظنه على قريب ، فإذا بالعداوات تصب والخصومات تعنف والصلات تمزق والروابط تنفك ، ويعيش هؤلاء في الويل والهلاك ، لم تكفهم مصيبتهم

فما سرق؛ بل زادوا عليها مصيبة أخرى هي خلق المشكلات واشتجار الخصومات .
ليت شعري أى علم هذا الذى اختص به من دون الناس جميعا هذا الصنف
من الخلق ؟ ومن أى كتاب أخذوه وفى أى مدرسة أو أى جامعة تعلموه ؟
ولماذا لا تسخر الجن والشياطين إلا لهؤلاء الدجالين الذين تلازمهم القذارة ،
ويستبد بهم الجهل ويستولى عليهم شظف العيش ، وتحوجهم الحياة إلى الارتزاق
من هذا السبيل .

إن الله تعالى يقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر
والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، ويعصى هؤلاء الجملة ربهم ، ويأخذهم الغرور
وخداع الناس فيقولون بل نحن نعلم الغيب . وكذبوا فإن خاتم الانبياء وأفضل
الرسل قد أمره الله أن يقول للناس : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء
الله ، ولو كنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير
وبشير لقوم يؤمنون » .

وهؤلاء يدعون أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، ويطيئون الأعمار ويكتبون
للناس السلامة من الآفات والأمراض ، ويعلمون متى يموت الإنسان ، وإذا شاموا
أخروا هذا الميعاد بعض التأخير مع أن المولى جل شأنه يقول : « إن الله عنده
علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا
وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » .

لقد قيل : إن ملكا أراد الغزو فأعد له عدته ، واتخذ أهبة ، وقبل أن يشخص
إلى عدوه بيوم ، جاءه أحد المنجمين وطلب إليه ألا يغزو هذا العام ؛ لأن جيوشه
ستنهزم إذا غزا ؛ فصدق الجند وآمن الناس ، ووقع الملك فى حيرة وارتيابك ، إن
خالف هذا الدجال ، ثار الجند وحلوا لواء التمرد والعصيان ، وإن سكنت هن الغزو
استضعفه الأعداء ونالوا من هيئته ؛ فلم يجد بدا من السكوت على ألم ومضض ،
ثم أرسل عند الفجر إلى الدجال من قتله وأراحه منه ، فلما أصبح الناس وجدوه
مفتولا . فقال لهم الملك : لو علم هذا الرجل الغيب لعرف مصيره ، وأدرك فى أى
يوم منيته . ثم خرج بجيشه فغزا عدوه وانتصر عليه نصرا مبينا .

إن رسل الله قد حرصوا على أن يفهم الناس عنهم أنهم مبلغون ومبشرون ومنذرون ، لا يعلمون الغيب ولا يدخلون في علم الله ، وإذا كان رسل الله لا يعلمون غيبه فهل يعلمه صعلوك من صمالك الناس ؟ وهذا كلام الله على لسان نوح يتبرأ من هذا الادعاء : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك » ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ، ويقول أيضاً : « من أتى كاهنا فساءله حجبته عنه التوبة أربعين ليلة » ، فإن صدقه بما قال كفر .

فهل بعد تلك الآيات الدامغة والبراهين الساطعة ، يدعى أفاك أنه يعلم الغيب بنفسه أو باستخدام الجن : ذلك جهل مطبق بدين الله ، وجهل مطبق بعالم الجن وماله من خصائص ومميزات .

إن الجن عالم آخر وخلق من خلق الله لا صلة لنا به ولا تأثير لنا عليه ، نحن لا نفهم لغته ولا ندرى كنهه ولا قدرة لنا على الاتصال به : لأن الحواجز التي جعلها الله بيننا وبينه مستحيل أن تزول بحيلة أو براعة أو قدرة على كتابة الطلاسم والمعميات أو إقامة الزارات .

ولنفرض المستحيل من أنه يمكن لبعض الناس أن يتصلوا بالجن ويستخدموهم ، فن أين للجن معرفة الغيب وعلم ما لم يقع . والله تعالى يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » .

إن الإنسان لعجيب في أطواره وأحواله ، عجيب في تفكيره وتصوره ، يحجب الله عن علمه الغيب لحكمة جليلة وسر بديع ، فيحتال على المولى بالجن ويستعين بالشياطين والعفاريت ؛ لإظهار ما أخفاه الله وكشف ما ستره . يا لبلاهة العقول وبلاهة الإدراك !

أن أعظم دليل يسوقه القرآن على جهل الجن بالغيب ما حكاه المولى عن نبيه سليمان ومعجزة تسخير الجن له : فإنها لم تعمل إلا الصناعات التي يعرفها بنو آدم من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب ، ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يرغ منهم

عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محارب و تمائيل
وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى
الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته ،
فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، فالجن
جهلوا موت سليمان وهو أمامهم يمررون عليه فى الصباح وفى المساء . أبعد هذا دليل
قاطع وبرهان ساطع ؟ .

يجب أن يعرف الناس العقائد السليمة ، ويرجعوا إلى الدين الصحيح ،
ويدركوا أن سنن الله فى الكون واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وسيله فى عباده
سوى لا عوج فيه ولا انواء .

وبذلك يعيشون فى أمان واطمئنان بعمهم دائماً الخير ، وتظلمهم أسى
ألوان السعادة .

قوة معاوية وحله

مرض معاوية بن أبى سفيان مرضاً شديداً فأرجف مصقلة بن هبيرة
وساعده قوم على ذلك ، ثم تنازل وهم فى إرجافهم ، فحمل زياد مصقلة الى معاوية
وكتب إليه أنه يرجف به ويسلط أقواما على أن يحذو حذوه ، وذلك ليرى
رأيه فيه . فلما دخل مصقلة على معاوية قال له ادن منى . فلما دنا منه أخذ بيده
فجذبه فسقط مصقلة على الأرض . فقال معاوية :

أبقى الحوادث من خالي لك مثل جندلة المراجع
صلبا إذا خار الرجا ل أبل تمتع الشكائم
قد رامنى الأعداء قب لك فامتعت من المظالم

فقال له مصقلة : يا أمير المؤمنين قد أبقي الله منك ما هو أعظم من ذلك حلما
وكلاً ومرعى لأولياك ، وسما ناقما لأعدائك . كانت الجاهلية فمكان أبوك
سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ، وأنت أمير المؤمنين .

ثم نهض مصقلة ، فوصله معاوية (أى أعطاه صلة) وأذن له فى الانصراف
الى الكوفة . فقليل له كيف تركت معاوية ؟ فقال زعمتم أنه لمسا به ، والله لقد
غمزنى غمزة كاذ يطمئنى ، وجذبني جذبة كاذ يكسر عضوا منى .

المعاهدة الإسلامية

بين الاغنياء والفقراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوي عبود الخولي
المدرس بمعهد القاهرة

اقتضت حكمته تعالى ألا يكون الناس أمة واحدة في الفنى والثروة، ففضل بعضهم على بعض في الرزق، وبسط العطاء لفريق وقدر على آخر؛ وذلك خاضع لسننه السكونية في عباده حيث أوجدكم في الحياة الدنيا ليلوهم أيهم أحسن عملا، وجعل لهذا الابتلاء ألوانا متعددة وصورا متنوعة، فقد يكون بما وهب من نعمة أو بما قضى من نقمة، وتبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون، هذا، وإن تفاوت الأشخاص في العطاء الإلهي يجعلهم أيضا فيما بينهم مظهرًا من مظاهر ذلك الابتلاء، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أنصبرون، وكان ربك بصيرا .

فأراد تعالى أن يختبر الغنى بالمال؛ ليعلم هل يعتز بربه لحسب ويقدر، حق قدره؛ فيبذل المال في مرضاته ويسخره في طاعته، ويجعل منه موردا عذبا للسائل والمحروم؟ أم أنه يأخذ الصلف بماله ويدفعه الحرص الأثيم إلى أن يحمل يده مغلولة إلى عنقه، ويتردى في هاوية من الضلال البعيد، فيكفر بنعمة ربه ويقول في عتو واستكبار: إنما أوتيته على علم عندي .

وكما اختبر جللت حكمته الغنى بالمال اختبر الفقير بالحرمان منه، ليتميز الراسخ في إيمانه الصابر على ابتلاء ربه، الواثق بعونه وإمداده، من هذا المنافق الهلوع الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . ولما كانت الصلة بين الغنى والفقير

هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع والدعامة القويمة التي يرتكز عليها بناؤه ، وتشيد صروحه ، غنى الإسلام بتلك الصلة عناية فائقة ، وأحاطها بكل أنواع التقديس والرعاية . وما كان له وهو البلمس الشافي لأمراض القلوب ، أن يهمل تلك العلاقة ويجهلها نهية لزعات الشر وعواصف الفساد ، وتستطيع أن تجزم - من غير إسراف - أن تلك الرابطة لم تظفر في تشريع ما يمثل ما ظفرت به في الإسلام ، وليس ذلك بدعا فهو دين الإنسانية الخالد ، وحرما الآمن ، وحصنها المسكين الذي يحفظها من المذاهب الهدامة ، ويدفع عنها أعاصير الفتن ومعاول الهدم والدمار . وإنك لو استقصيت الآيات والأحاديث التي وردت في رعاية تلك الصلة ، لحسبت أنها وحدها المقصود من رسالة الإسلام .

حسبك أن تذكر أن آيات الزكاة والصدقة تربي على الخسین ، وأنت قلما تجد سورة ليس فيها ذكر الفقير والمسكين وإثارة العاطفة للحبيب عليهما ، وما زال ركن من أركان الإسلام مثل هذه العناية والاهتمام ، وما ذلك كله إلا لأن إغفال تلك الصلة ينجم عنه خطر داهم ، وشر مستطير ، انظر إلى قوله عليه السلام : « واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حلمهم على أن يفسكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » .

ليكن الإسلام قد حل هذه المشكلة حلا فطريا عادلا ، وشرع لها علاجا حاسما اجتث به جذور الشر ، وصرع الفقر في مهده ، وأحكم أواصر المودة بين الأغنياء والفقراء ، فأصبحوا بنعم الله إخوانا ، يتنافسون في رعاية تلك المعاهدة القدسية : لأن كل واجب والتزام يتبعه حق وامتياز ، فقد أوجب على الفقير أن يحترم ملك الغنى ، فلا يدفعه عن ماله ، ولا يحسد من إرادته ولا ينقصه حرية التصرف ، ولا يحول بينه وبين العمل المشروع لزيادة المال وتنمية الثروة .

كل ذلك في نظير أن يستمتع الفقير بزكاة مفروضة على الغنى في ماله : هي ركن من أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه ؛ وبالتاليون في أدائها يصير ذلك البناء عرضة للزوال والانحيار .

ليست الزكاة فرعا ولا نافلة ، والنسب الواجبة فيها تسعف الفقير ، وترفع عنه ولا تجحف بالغنى : لأنها ليست شيئا مذكورا بجانب ما يقذف به الأغنياء في الترف الماجن واللهو الآثيم .

لقد بالغ الإسلام في الوصية بهذه المعاهدة ، فحُض على رعايتها بكل عبارة ناجمة وأسلوب أخاذ ، وألُهب جذوة الحماس لتنفيذها والوفاء بحمها ، وحذر عاقبة التفريط في شرط من شروطها ، فقال تعالى مبيناً حرمة مال الغير : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ، وبذلك منع الفقير من الاهتداء على مال الغنى ، وأبلغ من ذلك أن الله تعالى لم يطالبه بالكف عن العدوان فقط ، بل طلب منه أن يحافظ عليه لمحافظة على ماله تماماً : لأن المسلمين كنفس واحدة قال البعض مال لكل ، لأن المال عصب الدولة التي يتغيا الكل ظلالها ، ويقطف ثمراتها ، فكان لزاماً على الجميع أن يتكاتفوا لصيانتها والمحافظة عليه . ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ، وبما يملأ النفس روعة وجلالاً ، أن الوصية لم تقتصر على كف العدوان وتسخير الحواس في المحافظة على مال الغنى ؛ بل طلب أيضاً من الفقير أن يطهر قلبه من حسده والحقد عليه ، ولم يسمح له أن يصفى إلى خاطر الشر وأمنية السوء . ولا تمنعوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .

أى تشريع يرعى المال لصاحبه يمثل هذه الصيانة والإحكام ؟

تلك هي وصية الإسلام لأحد الطرفين ، أما الطرف الآخر فقد سلك معه مسلكاً حكماً ، يوزن أوتار القلوب فيجعلها تواقة للبذل والعطاء مستبشرة بالإحسان والمواساة . ونجمل ذلك فيما يأتي .

(١) آذنه أن ماله ملك لله ، وأنه فقط نائب عنه في الإشراف عليه ؛ فلا يحمل به أن يعصى المالك في ملكه ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .

(٢) قضى على ما يتردد في نفسه من أن الإنفاق مذهب للدال ، فبين له أن ذلك هو المعراج لكسب رضوان الله ومضاعفة المال . الشيطان يمدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يمدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم .

(٣) سمى الإحسان قرضاً له تعالى يأخذه ليرده بربح وفير . من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . وما قيمة امرئ يخل بإقراض بعض المال لواهبه الذي سيرده حتماً أضعافاً مضاعفة ؟

(٤) أعلمه أن بقاء الزكاة في المال من غير إخراج وسيلة لتلفه وزواله؛ يقول عليه السلام: « ما خالطت الصدقة مالا إلا أهلكته » .

(٥) أخبره أن الصدقة تحفظ المال وصاحبه من جميع الآفات؛ قال عليه السلام: « الصدقة تدفع البلاء » .

(٦) حذره من البخل وصور له ما ينجم عنه من العواقب الوخيمة، التي تسلب صاحبها لذة الأمن والعلمانية، وتجعله غرضا لفتنة جاحدة وبلاء شامل يقول عليه السلام: « ويل للأغنياء من الفقراء » .

(٧) جعله مهتداً بالفناء والاستئصال إن هو قبض يده عن الإنفاق في أبواب البر، ما أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فنسكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تولوا يبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم، إلى غير ذلك من التعاليم والوصايا.

من هذا يتبين أن النظام الإسلامي يجعل بين الغني والفقير نسبا موصولا، وإخاء قويا وتجاوبا روحيا، يتبادلان المودة والوفاء والانس والصفاء، فيحس الفقير أن ما نقصه من المال قد عوض له بإحسان الغني، ويستمتع الغني بما بقي من ماله مغتبطا بلذة الأمن مبتهجا بإخلاص الفقير الذي أسره بالإحسان، فصار هاتيا بملك المال والرجال.

لم يقتصر الإسلام في رعاية تلك الصلة عند هذا الحد؛ بل جعل للفقير موردا دائما في مال الغني؛ كما ترى ذلك ماثلا في كفارة الخنث في الدين، وكفارة العود في الظهار، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الفطر في رمضان، وكفارة المحظورات في الإحرام للحج، وزكاة الفطر ولحوم الضحايا، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحض على الجود في كل مناسبة كريمة، ترفع من شأن الأمة وتنهض بها إلى أوج العزة والكمال.

أيها المسلمون: إن هذه التعاليم القدسية لا تقوى أكلها بمجرد بحثها ودراستها، بل لا بد أن تكون جزءا من النسيج العقلي، تغزو القلوب متحركة فيها، والضمائر مهيمنة عليها، فلا يتصرف الشخص إلا بباعث منها، ولا يصدر إلا عن وحيها.

ويجب أن يجتمع الحكماء والمحكمون على احترامها وتقديمها . وأخذ النفوس بقانونها ، وتصبح تشريعا عمليا ترمب بسلطانها من لم يدمر قلبه جلالها ، وتحذره نفسه بخيانتها .

عندئذ حدث عن هذه الآثار القيمة ما شئت أن تحدث ، ففيها تحقيق لفكرة التأمين الاجتماعى التى هى هدف كل حكومة رشيدة ، وفيها قضاء على المذاهب المتطرفة التى تهدد كيان الدول ، وتحاول أن تأتى عليه من القواعد ، وتجعله هشيما تذروه الرياح . ولعلنا ذلك تلاقى الحكومات من صنوف العنت ما يجعل أممها فى تخفيف الولايات شاق الحصول عزيز المال .

فى هذه الآثار الطيبة هزيمة قاهرة لأعداء الإنسانية الثلاثة : الفقر والمرض والجمل ، إذ يتوفر لدينا المال الذى هو الدعامة فى قضاء الحاجات وطب الاجسام وتثقيف العقول .

وفىها أيضا إقامة لآخوة شاملة جامعة طالما تاق اليها الفلاسفة والمصلحون . والله أسأل أن يوفق قادة الأمة إلى العمل بشرع الله الحكيم ، والاستمسك بهديه الرشيد ونصرة دينه القويم ، ولينصرون الله من يهره ، إن الله لقوى عزيز .

شذرات من كلام الامام

قال على رضى الله عنه : رأى الشيخ أحب الى من شهد الغلام — الناس أعداء ما جهلوا — بقية عمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك بها ما أفات ، وبحي ما أمات — الدنيا بالاموال ، والآخرة بالاعمال — لا تخافن إلا ذنبك ، ولا ترجون إلا ربك — وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم — الناس من خوف الذل فى الذل — من أيقن بالخلاف جاد بالمعطية — بقية السيف أنى عدا ، وأنجب ولدا .

الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

كان العرب قبل الإسلام يعيشون في ظلام الفوضى والاضطراب والفساد ، لا رابطة تربطهم ، ولا نظام يجمعهم ، ولا دين يبر لهم سبل الحياة ، ولا قانون يهذب عندهم ما اضطرب من أمر الدنيا ، وما انتثر من نظام الاجتماع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، ولا يردون الحقوق إلى أربابها ، ولا يعيدون الودائع إلى أصحابها ، وليس فيهم تقديس لدماء الناس وأهوالهم ، ولا احترام لحرمهم وأعراضهم ؛ فالأموال تنهب ، والمحارم تستباح ، والعمود تنقض ، والدمار يخفر ، ويتمادى على الأمن في وضوح النهار ، دون رهبة لسلطان قانون ، ولا خشية من صولة حاكم .

فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، دعاهم إلى خير الدنيا والآخرة ، وسعادة الحياة والمات ؛ فهدب أوضاعهم ، وعدل نظامهم ، وجمع شتاتهم ، وجعلهم أمة واحدة مترابطة متألّفة ، قوية الدعائم ، راسخة البنيان ثابتة الأركان بما سن لهم من الشرائع ، وما أشاع فيهم من الآداب ، وما أوجب عليهم أن يتبعوه من القوانين ، ويخضعوا له من الأنظمة .

أصلح الإسلام قلوبهم ، وهذب أخلاقهم ، وصقل آدابهم ، وخلق من هذه الأمة الشامسة العصية ، المتناكرة المتنافرة التي تتأبى على النظام ، وتمرد على قواعد الاجتماع ، أمة كريمة هفيفة مهذبة لا تعرف الجفوة ، ولا تحب الغلظة ، ولا تبغى على أحد ، ولا تظلم مخلوقاً . وكان شعارهم في ذلك قول الله جل شأنه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » . كذلك شرع الإسلام للناس ما ينفعهم في حياتهم ،

ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم . فلم يدع ناحية إلا أضنى عليها النور ، وبسط عليها النظام ، وجعل السيادة فيما للقانون .

وإن نظرة واحدة إلى ما شرهه القرآن من أنظمة ، وما دعا إليه من آداب كريمة ، وسنن قويمه تجعل المرء يؤمن من أعماق قلبه أن الإسلام جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، تقومهم إلى الخير ، وتوجههم إلى الغايات المثلّية ، وتدلم على السعادة الحقة ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

ولسنا الآن بصدد أن نفصل ما سنه الإسلام من شرائع ؛ لإصلاح نظام الحياة ، وتهذيب كل ناحية من نواحيها ، وتأمين الناس حتى لا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يأكل أحد مال أحد أو يبلغ في عرضه أو يكشف ستره ، أو يهتك حرمة ، فذلك أمر يطول الحديث فيه ؛ ولكنني أقتطف زهرة فواحة من بعض النواحي ، وفيها غنية لكل عاقل يلزمه النظر الصحيح والإدراك السليم ، ودلالة أبلغ الدلالة على أن الإسلام دين ودولة ، أدب وسياسة ، عبادة ومعاملة ، نظام يربط العبد بربه ، ويوصل الإنسان بأخيه الإنسان صلة كريمة لا يبغي فيها ولا عدوان ، وليس الإسلام كما يصفه بعض المفتونين ، ضعاف العقول قصار النظر يمتن راجت عندهم شبه الباطل ، ونفقت لديهم وساوس المضلّين من أن الإسلام لا شأن له بالدنيا ، ولا ينبغي له أن يدخل في نظام الاجتماع .

لو أتيح لهؤلاء حظ من العقل والإنصاف ، ولو تجردوا ساعة من شهواتهم وأهوائهم ؛ لأدركوا أن الإسلام في أجمل صوره ، وأقدس مظاهره ليس له من هدف إلا أن يكون العبد قوى الإيمان بربه ، عظيم الثقة في خالقه ، وأن يكون مع ذلك في هذه الأمة عضوا من جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؛ فلينظر هؤلاء إلى ما سنه القرآن من أحكام تصلح كل مظهر من مظاهر الحياة .

ففي المعاملات التي تقوم بين الناس ، يشرع لنا رب العالمين أحكم القوانين وأبدع النظم التي تجنبنا الفوضى ، وتقينا شر الفساد ، يأبى الذين آمنوا إذا تداينتم

بدین إلى أجل مسمى فاكثبوه ، وفي الزواج يقول تعالى : « فانكحوا ما طاب
لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، ويضع لنا
دستورا فيمن حرم علينا من النساء فيقول : « حرمت عليكم أمهاتكم ، الآيات ،
وفي الموارث يقول : ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، الآيات .

ويدعوا إلى المحافظة على الأموال فيقول جل شأنه : « ولا تأكلوا أموالكم
بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم
تعلمون ، ويحرص أشد الحرص على صيانة الدماء فيقول : « ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق ، . « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ،
وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً .

ويضع القصاص فيقول : « كتب عليكم القصاص في القتلى ، ويشرع الحدود
فيقول : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما
رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة
من المؤمنين ، .

ويدعوا إلى الوفاء بالعقود واحترام العهود حتى مع المعاهدين ومن دخلوا
في ذمة المسلمين ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا
عليكم أحداً ، فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، « وإن أحد من
المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم
قوم لا يعلمون ، .

وهكذا في كل ناحية : تشريع محكم ، ونظام دقيق ، وحكم هادئ رقيق ،
لا عنف فيه ولا قسوة ولا ظلم ولا إجحاف ، ولا يشعر أحد بما يشق عليه
أو يعسر ما دام يؤدي واجبه ويقوم بتبعاته .

فهل بعد هذا نظام يحفظ كيان المجتمع من التهدم ، ويصونه من الانحلال
والتهدهور ؟ وهل بعد هذا القانون المهندب السميع قانون يمكن أن يؤخذ به
الناس ، وتسير عليه الجماعات ويصلح به شأن الدنيا ؟ .

هل بعد هذا النظام الدقيق الشامل الذى أصلح ظاهر الناس وباطنهم وعلايتهم وسرهم، يطمع طامع أن يُوجدَ قانون آخر يهذب الجماعة، ويلم شعبتها ويجمع شتاتها؟ .

لقد خلق الإسلام من العرب دولة قوية شاحنة، وأمة فتية ناهضة، نشرت العدل والنظام، ورفعت لواء الحق والأمن، وحملت نبراس الفضائل، فتطامنّت الأمم لسلطانها ودانت لعظمتها، ودخل الناس في نظامها طامعين مختارين . وفي ذلك عبرة لمن تحدثهم نفوسهم أن الإسلام دين ليس له شأن بالدولة، وعبادة لا تتصل بالسياسة . ادعاء مريض، وتفكير سقيم ونظر كليل، لا يعرف الحقائق الدامغة، ولا يبصر ما تحفل به صحائف التاريخ من مجد أنيل وجاء عريض .

لقد كان الإسلام ديناً ودولة، يقدس الناس قوانينه، ويحترمون نظامه؛ ويرهبون القائم عليه، ويأخذون أنفسهم بطاعته ولو كان عبدا حبشياً؛ فأمن في ظله الخائف، وشيع الجائع، واكتسى العارى، وأنصف المظلوم، وجبر المهيض؛ فامتدت رقعته إلى أبعد الآفاق والحدود، لأن الناس لم يكونوا يعرفون هذه الكلمات الجوفاء، التي يرددونها البهيم دون أن يدركوا مدى ما تبعته من فرقة، ولا ما تحدثه من انقسام، وما تجره من ضعف خلقى وتحاذل اجتماعى .

الإسلام نظام للدين والدنيا، وشرعية تهذب أمور الناس في حياتهم، وتهديهم إلى الفوز والنجاة في آخرتهم .

وما الدين إلا نظام للحياة إذا سار الانام على منواله سعدوا

ولقد تهدد المولى جل شأنه من يحيد عن سنته وينأى عن شريعته بالعذاب الاليم، والشر الدائم المقيم . تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .

فهل بعد هذه الآيات البينات، وتلك الحجج الواضحات الدامغات، يقول ضال أو يتشدد مقتون، ما للإسلام والدولة؟ وماله وسياسة الأمة؟ فليشعر الناس قلوبهم، وليشربوا نفوسهم آداب الإسلام وسماحته، وستكون لهم حينذاك المكانة التي لا تدانيها مكانة، والمنزلة التي لا تسو إليها منزلة .

من طبائع الشعر الجاهلي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عوفى

المدرس بكلية اللغة العربية

إن وعوثة الصحراء ، وخشونة العيش ، وحرية الفكر ، وطبيعة الجو ، وسذاجة البدو - كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ، ومازه بسمة ظاهرة .

لهذا كانت له مزايا لم توجد في سواه ، وقد يكون أبرز هذه المزايا ، وأولها بالحديث ، الصدق في تصوير العاطفة ، وتمثيل الطبيعة ؛ فقلما تجد فيه كلفا بالزخرف أو تكلفا في الأداء ، ولذلك كثر فيه الإيجاز وقل المجاز وندرت المبالغة ، فلا يقولون من الكلام إلا ما يحظر لهم ، ولا يصورونه إلا كما يتمثل لخيالتهم ، والقاعدة في النظم عندهم بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن أبي سلمى وهو قوله :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
فإذا تيم أحدهم الحب مثلا وأراد التعبير عن شوقه وهيامه ، وصف ما يشعر به كما هو ، فلا يغالى مثلا في وصفه بالضعف ، فيزعم أنه استحال إلى خيال أو طيف كما يفعل المتنبي إذ يقول :

كفى بجسمى نحو لا أنتى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترقى
أو يزعم أن الشوق أضناه وأفناه ، حتى لم يبق فيه غير خواطر تجول ؛ كما يقول الجوهري :

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى فلو شئت أن أبكى بكيت تفكركى
أو يبلغ في بكائه وزفيره ، فيدعى أنه غرق في بحر دمه ، أو احترق بنار زفيره ، وإنما يقول كما قال ابن الدمينية :

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأشياي إليك قليل
 وكنت إذا ما جئت جئت بعلة فأفريت علاقي فإذا أقول ؟
 فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي إليك وصول
 فلا يسمع محب هذه الأبيات وأمثالها إلا رأى الشاعر يعبر عن شعور
 صادق ، وإذا رثى أحدهم ميتا لا يوم السامع أن السماء طبقت على الأرض ،
 وأن الشمس كسفت ، والدنيا لبست الحداد ، وإنما يقول كما قالت الخنساء رثى
 أخاها صخرًا :

ألا يا صخر إن أبكيت عيني فقد أضحككتني دهرًا طويلا
 يكتيك في نساء معولات وكنت أحق من أبدى العويلا
 دفعت بك الجليل وأنت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا ؟
 إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا
 وإذا أراد أن يهجو توخى الحقيقة ولم يرد الواقع في الهجاء كما يقول يزيد
 ابن قنافة يهجو حاتمًا :

لعمري وما عمري على بهين لبئس الفتي المدعو بالليل حاتم
 غداة أتى كالنور أخرج فاتق بجهته أقتاله وهو قائم
 كأن بصعراء المُرَيط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم
 أعارتك رجلها وهاني لها وقد جردت بيض المتن صوارم
 وهذا على غير ما صار إليه الشعر بعدُ من البذاء والفحش ، وحسبك
 مقذعات أبي نواس وبشار بن برد ومن على شاكلتهما دليلا على التوقع فيه
 إلى حد الإفراط .

على أن أشد الهجاء عندهم ما كان أعفه وأصدقه ، ومن لطيف تجافهم
 عن الهجاء ما قاله صخر بن عمرو المسلمي يرثى أخاه معاوية وقد قيل له : اهج
 قتلته ، فتعفف وقال :

وقالوا ألا نهجو فوارس هاشم ومالي وإهداء الخنا ثم ماليا
أبي الهجو أنى قد أصابوا كريمي وأن ليس إهداء الخنا من شماليا

فقد عبر عن الهجو بإهداء الخنا، وهو تعبير جميل يدل على مدى تخرجه
عن الهجاء .

فإذا اضطر العربي إلى ذكر ما يعد ذكره بذاء وقبحا، فعل ذلك لا تهتكاً،
بل وصفا للحقيقة، وبيانا للواقع ولا يعد وهما .

قيل لأعرابي: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط
بالمق، فصار مثلاً .

كذلك إذا تحمس أحدهم أو تفاخر فلا يجعل نفسه أو قومه في عداد الآلهة،
وإذا مدح فلا يغلو في مدحه غلو القائل :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك أنظف القى لم تخلق

وإذا وصف حادثة، أو وصف حيواناً أو امرأة، تحرى على الجملة تصوير
الطبيعة كما هي، ومثلها بلا مغالاة في المجاز أو الكناية كما يفعل المتأخرون .

ومكذا فشاعروهم مندفع في كل ذلك بدافع الطبيعة، لا يفكر في غير ملوس
بين يديه، ومنظور أمام عينيه، وعاطفة بين جنبيه، وشعيرة تختلج في صدره،
وصورة مطبوعة في مخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته؛ ولا يتطلع إلى
ما وراءها، ولا يتخطى إلى غير مشهوده ومعقوله؛ لذلك جاء الشعر العربي مثلاً
صادقاً لبدائيتهم وحضارتهم .

ذلك أن العرب في جاهليتهم فطروا على السذاجة، والبعد عن العمل
والصنع في كل شيء حتى في مواطنهم، فكانوا لا يتوطنون صقعا خاصا بأوون
إليه؛ بل كانوا يحملون منازلهم على متونهم؛ لا يحملون ضياء، ولا يقيمون على
خسف؛ قال شاعرهم :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعان

فتمكنت الحرية من طباعهم ، وكانت الشجاعة الادبية من أيمن صفاتهم ،
وأوضح سماتهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم وأشعارهم .

بدلك على ذلك ما ظهر من حريتهم في أقوالهم منذ صدر الإسلام ، يوم كان
أحدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس ، وإذا رأى فيه اعوجاجا أو انحرافا
انتقده في وجهه ، والخليفة يومئذ لا ينكر عليه انتقاده ، ولا يرى فيه غرابة .
وعما يلي تعلم مبلغ تمكن تلك الحرية والجرأة من طباعهم .

تزوج صحابي بابتنة خالة له في خلافة عمر بن الخطاب ، وأمهرها عشرة آلاف
درهم ، فلما علم ذلك إلى عمر ، فقام وخطب الناس يوم الجمعة فقال رضى الله عنه :

أيها الناس ليس فيكم من هو أكرم على الله من ابن عم الرسول ، وليست
فيكم من هي أكرم على الله من زوجه البتول ، حتى يدفع أحدكم عشرة آلاف درهم
مهرأ ، وهو يعلم أن فراش البتول إهاب كبش ، ووسادتها حشوليف . فقاطعت
عجوز في الجماعة بحميمة وجرأة قائلة : تبالك يا عمر ! وكررتها ثلاثا بكل ما نملك
من قوة صوت . فارتعدت فرائص عمر ، ثم قالت : أين أنت يا حامي لواء الإسلام
من قوله تعالى : . وآتينم لإحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، الآية فتقاطرت
عيناه بالدموع حتى بللت موقفه على المنبر ، وأجاب من فوره : أصابت امرأة وأخطأ
عمر — ردها ثلاثا . ثم قال تقدمتك الناس علما ورشدا حتى المعجزات ثم
نزل منكس الرأس .

فانظر إلى أى حد وصلت هذه الجرأة ، حتى على من كان تغنو له الأقبال
والأكاسرة ، ولكن هكذا أبت الطبيعة العربية إلا أن تظهر في ثوبها الحقيقي .

فليس يبدع أن يكون الشعر الجاهلي أفضل أنواع الشعر القديم لأنه —
على سذاجته — يمثل لنا طبيعة الإنسان وعواطفه كما مر ، ويهيج فينا عاطفة
الشحم والرغبة في فضائل الرجولة ، وأنه لا ينبغي أن تقف في سبيلها رغبة أو رهبة ،
كما ينبغي أن يتطامن سلطان الحكم لنصيحة الحق حينما كان .

مجالات في الأدب العربي :
مكتبتنا العربية

ألوانٌ أهملتُ..!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

كانت التعابير الماثورة من مقول القبيلة أو ثأرها، ثم من الخليفة أو قائده،
تحمل خصائص الإيجاز المشافه والافتقار الخطابي المؤثر، مما يدخل إلى الأسماع
سريعا ويتدفق على اللسان في المحتربات السياسية والاشتباكات المتشاجنة في الرأي،
وكأنها المثل أو الحكمة، أو السائر من بيت في قصيدة، أو عين في مقطوعة.

فلما استقرت حضارة الامبراطوريات الإسلامية، وجعلت القرائح حقلها
الصحف ترسل في مجاريها الرسالة الإخوانية أو الرسالة السياسية أو الفكرة
الاجتماعية أو ولاية عهد أو منشور سياسة في التأييد أو الاثارة، وجد فن التوق
البياني والإبداع الإنشائي عند كتاب المقامة كالبديع والحريري.

وتمكن القلم الذي ينقد المجتمع، ويحلل النفوس ويبسط مرآيا المحاسن
والمساوى. وارتقى هذا اللون على يد الجاحظ، الصانع.

وبدأت المكتبة العربية تذخر من مخلفات عباقرة الإسلام آثارا قلبية
لا تزال ولا تزال في دثارها، تكشف عن ملامح خالدة تربط فيما عالجته بين
الماضي والحاضر، وتصدق إن نحن تلنسنا مصداقها في حياتنا الحاضرة، لأن النفس
الانسانية في كل عصر لا تختلف في الخصائص الأصلية، واختلافها في مقتضيات
البيئة وتطور الزمان، وكل ذلك عارض تمطره متبدلات الحضارات، وأما الأعماق
من حب وبغض، ومن سمو وضعه، ومن مهاوى الغرائز ومثالب، فكل أولئك
تجدد فيه ملتقيات تتشكل في زى المعاصرة، والمعادن عند ما تصهر تختلف بقايا

تكاد تنحد ، وهنا يستعيد المفتن قووات الماضي ويظفر منه بما يبنى عليه المستقبل ، وهذا مكان التأسي ومهد التعلق بالماضي ، ومراد القلم المتبصر المنصرف الذي لا ينسركر قديمه ولا يحن بجديده .

ومن بدع القديامي تحلية المنشور من فن القلم بفرائد من الشعر تنساق في مسارب الفكرة ، وتمضي بين الرسالة أو الخطبة أو المقامة أو المقالة في التماعة الإشرافة ، وانطلاق الابتسام ، مُحَلِّية ، مُحَلِّية ، متمكنة في نتاج العبقرين كالجاحظ والبدیع والصابي ، مزينة كالحال على خمد الحسناء في أقلام المصنعين كالقاضي الفاضل ومن لف لفه من كتاب مدرسته .

ويبدو لي أن كتاب الأندلس في حاجة إلى التفرد بإشادة ، لأنهم بالغوا في اللجوء إلى الشعر والإكثار من حصائده المتنقلة المتغيرة ، لأن كتاب الأندلس كانوا من الرقة ومن الشاعرية على خط موفور ، بل ربما كان الكاتب في هزات قلبه يمتسح من مسایل الشاعرية ، ويرسل الألفاظ في تخايل الأثواب الشاعرة المقدودة من اللحمة العاطفية . وفي رسالتی ابن زيدون ما يقنع الشاك ويرضى المتصدي للاستدلال .

وساعد الأندلسيين على هذا النهج : جمال الطبيعة في بلادهم ، ومفان الجمال العصامت والناطق في فردوسهم الضائع وجنتهم الدانية القطوف .

وفي عصرنا الحديث عرف الأدب العربي أقلّ ما منها المغفور لهم ، محمد السباعي ، و د حافظ ابرهیم ، في النثر ، والمويلحي في حديث (عيسى بن هشام) . ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد ، وإنما الذي يهمنا هو انصراف الأقلام عن تلك الشذشة وهذه السنة .

وأستطيع أن أعزو ذلك لقلة التحصيل عند حملة الأقلام ، أو تطور الدوافع والدواعي عند من يكتبون .

وربما قال المعتذر إن انسلاک الشعر في منشور القول كان للتطور في أسلوب الكاتبين ، وإننا أضحينا في زمن يخضع الأدب فيه إلى مطالب الآلة ، وأكثر الكتاب يعيشون على حقول الصحافة ، والصحافة لا تريد غير الأسلوب

التفريزي والبيان ، الخبري ، . وتلك هي الطامة التي مستجنى على فتية الأسلوب ،
 وإن روجت له وكثرت منه وأشاعته وقربته من عوام ، القراء ، وأشباه المثقفين .
 والمهم عندي أننا فقدنا لوناً من الأساليب التي جمعت دقة الفكرة وجمال
 التعبير وشاعرية الأداء ، وكففت في طواياها بدائع من الشعر وطرائف من النظم
 مقبوسة من الحكمة أو مقطوفة من الرأي أو مقطوعة من الغزل .
 وظنى أننا سنعود في عهد قريب ، بعد أن نجد الجفاف يسيطر على ما يخلفه
 القلم النائر بسبب مجافة التشبيه المطرب ، والسكناية المخدرة ، والاستعارة اللامحة ،
 ومعاداة التخلية بيت من الشعر أو بمقطوعة من النظم :
 نعم سنعود الى بدائع الجمال التعبيري ، والافتنان في إخراج الفكرة وتظليل
 أثوابها ، بعد أن عريناها فخرجت وجمالها يقضى عليه ما يعد ، كالجدري ، في وجه
 الحسناء ، أو كالصدأ حف بالمعدن النفيس .
 ونصيحني إلى الشادين في الأدب : أن يعكفوا على زاد الأدب العربي
 من منشور ، ومنظوم ، وأن يرعوا حقه يوم تدمم ثقافتهم من موائد الغرب ،
 فاذا استطاعوا أن يحفظوا حق ماضيهم إذا أضافوا من الجديد الغربي ، كان لهم
 مقام صدق ، وكان لهم القدح المملئ ، واستطاعت صناعتهم أو استطاع أثرهم أن يباهي
 ويتقدم بخطاه الى سدة الخلود ، فإن ارتد عن هذه السدة فلا أقل من أن يجد
 مدرجه في الحياة الشرقية التي تهرما تجمل بالشعار الشرقي وتسربل بالذثار العربي .

حماسة

نسبت إلى علي بن أبي طالب عليه السلام هذه الأبيات :
 لمن راية سوداء يحقق ظلمها إذا قيل قدمها حصين تتقدما
 فيوردها في الصف حتى ترددها حياض المنايا تقطر الموت والدماء
 جزى الله قوما قاتلوا في لقائهم لدى الروع قوما ما أعز وأكرم
 وأطيب أخبار وأفضل شيمة إذا كان أصوات الرجال تغمغما
 قلت : نسب هذا إلى الإمام وفيه تشكيك ؛ لأنه كان كثيراً ما ينسب إليه ما لم
 يقله بسبب إكبار الناس لأقواله .

الخيال الشعري

للشيخ أحمد محمد صقر
الطالب بكلية اللغة العربية

يمتاز الشعر من الفنون الأخرى بحاجته إلى الخيال ، وينفرد عن أنواع الأدب بأن الخيال لازم له دونها جميعاً . قال كاتب يستطيع أن يجد طريقه إلى النفوس بوسيلة غير الخيال ، والقاص يستطيع أن ينسج من الواقع ثوباً جذاباً لقصته ؛ بل ربما كان القصص الواقعي أقرب إلى النفوس مما عداه .

ولكن الشعر لا يروج إلا حيث يكون الخيال موفوراً ، ولا يلد للناس إلا إذا طاف بهم على صور تنزعها الخيلة من شيء غامض ، يدق مأخذه ، ويبعد لأول نظرة اقترانه بالحس . وإذا كنا نسمعهم يصفون الشعر ، بأن أعذبه أكذبه ، فما ذاك إلا لأن الخيال عمدته ، وما أوقى الشاعر حظاً كبيراً من التخيل ، فإنه بالغ ما أراد من التأثير ؛ فإذا فقد هذا العنصر ، برد الشعر ومال إلى الغثاء ، بل أصبح بالنظم أشبه ! وروعة الخيال تأتي الشعر من طرفيه ، فإذا أن يبلغ الذروة في الرقي فيمز النفس ويتغلغل فيها ، وإذا أن يبلغ الغاية في الهزل فيهزها أيضاً ؛ فإن وقع وسطاً بين الغائتين ، خرج عن الشعرية وانضاف إلى الاعتدال ، فلم يرقص الجوامح ولم يبعث الوجدان . ذلك أن الشعر لا يخاطب العقل ، وإنما يخاطب الشعور ، ولا يجرى مع المنطق ، بل يجرى مع العاطفة ، ولا يسار القواعد والأصول ، بل ينطلق إلى ما وراء القواعد والأصول ؛ فلا يخضع للقيود لأن الأحاسيس لا قيود لها ؛ فليس من الشعر في شيء تلك الحكم والمواظم والفلسفة والنظريات ، وقد أحسن نقاد الشعر حيناً نفوا عن المتنبي والمعري وأمثالهما أن يسموا شعراء ، ورأوا إحقية البحري بهذه التسمية . وبعد

ما بين إنسان يستوحى المنطق ويخلق في أجواء أرسطو وأفلاطون؛ وبين آخر يسبح في تأثير الروض ويطوف بالنفوس والعواطف يستلهمها، وليس هذا إغماضاً لشأن العلوم فليست الغاية مقارنة بين شعر وعلم، فكل هذا أن نتحدث عن الخيال وقيمه في الشعر... وسواء أكان هذا الخيال مخترعاً أم محكمًا مفترعاً... فقد سبق الشاعر بالابتكار، ولكن المتأخر يولد ويزيد ويقلب وينزع، ويلج على المعنى، حتى يضيف إليه شيئاً جديداً، فيعد ذلك له فضلاً لا يقل عن فضل المبتكر.

وقد ابتلى المتأخرون من الشعراء بتأخر زمانهم وجدّد القدماء بتقديم عهدهم؛ فاقنطفوا أزهار المعاني وتركوا أشواكها للمتأخرين، ونهلوا من مناهلها وهي صفو لم تكن مطروقة ولا مرنقة، فجاء من بعدهم يقلدونهم حيناً فيظهر فيهم أثر التقليد، وتعلوهم علامات الانقطاع والبحر. ويجددون أحياناً أخرى فيأتون بالعجاب الذي تنقطع أعناق القدماء دونه، فيتخذ المتعصبون من التفدة جديدهم دليلاً على الإقلاص، وتقليدهم دليلاً على عظمة القدماء، ثم يصير الأمر إلى عرض قضية الخيال الشعري على محكمة الهوى؛ فيحكمون على الخيال حكماً يفيض تجنيا وظلماً، فيقولون: إن العقل البشري سائر نحو الارتقاء إلا من حيث الخيال الشعري فإنه لا يزال في مكانه، هذا هو ميروس لا يزال نابغة الشعراء وقد مر عليه نحو ثلاثة آلاف من السنين، والناس يتقدمون في كل شيء؛ وامرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى، وغيرهم من الجاهليين لا يزالون من نوابع الشعراء إلى الآن. ونحن نتكر أن يكون الخيال الشعري صورة للعقل البشري، إذ أن العقل شيء والخيال شيء آخر؛ فإن الخيال إذا خضع للعقل ضاق ولحقه المسخ والتشويه، فهو تابع للإحساس معتمد على القلب والعواطف والوجدان؛ ونتكر كذلك أن يكون الخيال الشعري واقفاً حيث تركه امرؤ القيس وأهل عصره!

ولكنهم يحكمون على الخيال الشعري بالارتكاس بناء على شيئين:

أولهما: اعتراف المتأخرين بفضل السابقين، وتقليدهم إياهم مع ظهور عجزهم في هذا التقليد وتلك المحاكاة، واعتبار القدماء فوق مراتب الطعن والتجريح.

ثانيهما : أن الزمن كلما تأخر بالنداس ضاقت مخيلاتهم ، واتجهوا إلى المادية وغلبت عليهم تلك النزعة .

ودفع هذين الدليلين ليس من الصعوبة بمكان ، وما علينا إلا أن نتخذ الشعر العربي مجالا للتطبيق والبحث ، فإنه لا يضير المتأخرين بتقديمهم للجاهليين ؛ لأنهم إنما يحترمون السليقة ويعظمون الفطرة ، ويعترفون للملكة بالفضل ؛ فهذا الاعتراف على ؛ لأننا ما زلنا إلى اليوم نعتبر القدماء مثابة للفصاحة ، ونحتج بمأثوراتهم لصحة الكلام واستنباط القواعد . وجاء الأمويون فرفعوا من قدر الجاهليين ، وأشعلوا نار العصية العربية ، وأحيوا عادات الجاهلية ، وحارصوا على رواية أخبارها ، فانساق شعراء عصرهم وراء هذا التيار . فلما جاء العباسيون وحدثت تلك الثورة الأدبية الكبرى ، على أثر ذلك الانقلاب الاجتماعي بالانتقال من البداوة إلى الحضارة ، جدد الشعراء وطافوا بأخيلتهم حول كل بعيد المنال ؛ فحققوا للشعر ما لم يحلم به ، وجعلوه مادة أساسية في الحياة اليومية ، وارتقى خيالهم الشعري ارتقاء يحسبه كل منصف ، ويعترف به كل باحث مدقق .

وما ظنك بالإنسانية حين ترتقى في كل مرافقها ، ويطلع الناس على صور لم يشهدوها من قبل ، وتفتح أعينهم على مشاهد تفجر بحور الشعر في الضلوع ، وتشق الآكام عن زهر المعاني ، وتبعث الخيال غضا نضيرا ...؟ أهو الشاعر يخلق البيئة أم البيئة هي التي تخلقه ؟ إن البيئة كانت في العصر العباسي خلاقة تبعث الهزيل فتياً . وتجبر الخيال الشعري على الارتقاء عما كان عليه قبل ذلك . فما بضاعة الجاهلي التي يستمد منها خياله ...؟ إنها الناقة والكلب .. والرمال والجبال والسماء ، بعثته على الخيال والتصور ؛ أف يكون من الإنصاف في شيء أن نحكم بضيق الخيال بعد ذلك ؛ لأن البيئة أسمع ودواعي التصور ازدادت ؟ ثم هذا التلاقي بين العرب والأجانب والخلاط بين البدو والحضر ، الذي من شأنه تنمية الحس وتلطيف الذوق ، وخصب المعاني .. أ يكون كذلك مبعث جمود ، وسبيل موت ؟ في الحق إن الخيال ارتقى والشعر تلون بألوان الحياة ، فلا سبيل إلى الإنكار ، أما صيرورة الناس إلى المادية ، وتلك تضعف الخيال وتهبط به

من سمائه إلى حضيضها ، ففى كان الناس كلهم ماديين ؟ ومتى كان الشعراء يذهبون هذا المذهب فشعرهم ليس شعرا وإنما هو شيء آخر ؛ لأن الروحية مدد للخيال الشعرى ، وإذا بردت برد الشعر وتضاءلت قيمته الشعرية الفنية ، ولم يكن كل الناس على شاكلة واحدة فى يوم من الأيام .

فلا تزال للشعر حصونه المنيعه من نفوس الشعراء ، يرتفع فيها عن وهدة المادية ، ويستعلى بها على طبيعة الجود ، ولا يقف عند الحدود والحدود ؛ وعصرنا الحاضر عصر آلى حقا ، ولكنه مع ذلك ملء بالاتجاهات الشعرية ، والخيالات البديعة ؛ إذ الفرد الواحد يستطيع أن يكون أمة كاملة ، لا مزاج العالم بامتزاج الثقافات وتلاقح الأفكار ، وفى ذلك كله للخيال الشعرى مدد يزيده ارتقاء ، ويعوضه من استهلاك المعاني جدة ونضارة . وإذا كان الشعراء فى هذه الحقبة لا يؤمنون بالأساطير التى آمن بها هوميروس ، ولا يعجبون بالخرافات التى أعجب بها الجاهليون ، فإن ذلك لا يضرهم ولا يحد من خيالهم ، ولا يزالون يرتفون بهذا الخيال ، فالشاعر الحق يسبق الزمن بتصوره ، ويرتفع عن معشره بوجدانه .

الرجال قليلون

قال ابراهيم بن السندى : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها ، كان لا يجف لبداه ، ولا يستريح قلبه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الرجال ، وإدخال المرافق على الضعفاء ، فقلت له : أخبرنى عن الحالة التى خفت عليك النصب ، وهونت عليك التعب فى القيام بحوائج الناس ما هى ؟ قال : والله سمعت تغريد الطير بالاشجار فى فروع الاشجار ، وسمعت خفق أوتار العيذان ، وترجيع أصوات القيان ، فما طربت من صوت قط طربى من نداء حسن ، بلسان حسن ، على رجل قد أحسن ، ومن شكر حر لمنعم حر ، ومن شفاعه محتسب لطالب شاكر .

قال ابراهيم : فقلت له لله أبوك فقد حشيت كرما .

فِقْصَةُ الرَّشِيدِ

طرف من حياته الداخلية

لحضرة الاستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

من أشهر الحوادث في تاريخ العباسيين مقتل الوزير جعفر البرمكي . فلقد كان أثيراً عند هرون الرشيد ، محبباً إليه ومقرباً منه ، وقد اتخذه وزيراً بعد أبيه ، وأطلق يده في كبريات الأمور وصغرياتها ، ثم فوجيء الناس بخبر مقتله ، فدهشوا ولم يقفوا من ذلك الأمر على سبب .

ولكن المقربين من الخليفة كانوا يلاحظون منه أحياناً ما ينهمهم إلى برمه به ، واستنقاله له كأنه وقف منه على دخيلة سوء . من ذلك ما تدل عليه القصة التالية :

بينما الرشيد في مجلسه ، إذ دخل عليه أحد قواده . فقال له الخليفة : ما وراءك ؟ فأجابه القائد : لقد ظفرنا الليلة ببغي بن عبد الله ! فالتفت الرشيد إلى جعفر البرمكي وقال له : خذ هذا عندك ، واحتفظ به في محبس ، ثم سله عن طلبه للخلافة ، وحذره مغبة الخروج علينا ، ونول ذلك بنفسك .

فقام جعفر بما عهد له إليه أمير المؤمنين ، وسأله عما نسب إليه . فقال له يحيى : اتق الله يا جعفر في أمرى ، ولا تنعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقه ما أحدثت حديثاً ، ولا آويت حديثاً ! فصدق جعفر وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، فقد صدقتك . فأجابه يحيى : وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قاييل فأرد إليك أو لغيرك ؟ فقال له جعفر : إني مرسل معك من يبلغك مأمنك . فاطمان يحيى ومضى حيث غاب عن أعين الرقباء ...

وانقضى وقت من الزمان ، وإذا بأحد الجواسيس يسأذن على الرشيد . فلم يأذن له لأنه مشغول عنه ، فأرسل الجاسوس رقعة فيها : يا أمير المؤمنين نصيحة فادع بي إليك ، فأرسل إليه الرشيد بهرمة أحد قواده ليسأله عن نصيحته ، فأبى الجاسوس أن يبوح له بشيء ، وقال له : إن الذي عندي لسر من أسرار الخليفة . فقال الرشيد : لا يبرح الرجل حتى أفرغ له . ثم قال بعد قليل : إلى بالرجل . فلما مثل بين يديه رأى بعض أبناء الخليفة ، وبعض حراسه . فقال أخاى يا أمير المؤمنين على أن تؤمننى . فقال الرشيد : انصرفوا يا فتيان ، وإنى مبلغك مأمنك ، ومحسن إليك . فتقدم الجاسوس وقال : كنت بحلوان فى خان من خاناتها فإذا أنا بيحيى بن عبد الله ابن حسن فى دراعة من صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرحلون إذا رحل ، يوهمون من رآهم أنهم لا يعرفون يحيى ، وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن تعرض له أحد .

فأراد الرشيد أن يتعرف حقيقة الأمر ، فسأله : أو تعرف يحيى بن عبد الله ؟ فأجابه الجاسوس : أعرفه قديماً ؛ وذلك الذى حقق معرفتى به بالأمس . فقال له الرشيد : صفه لى . فأجاب : إنه مربع أسمر رقيق السمرة حسن العينين عظيم البطن . فقال الرشيد : صدقت هو ذاك فما سمعته يقول ؟ فأجاب الجاسوس : ما سمعته يقول شيئاً غير أنى رأته يصلى ، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالسا على باب الحان ، فلما فرغ من صلاته أتى بشوب غسيل فألقاه فى عنقه ، ونزع عنه جبة الصوف . فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر وأنا أرمقه ، أطل فى الأولين ، وخفف فى الأخيرتين ، فأعجب الرشيد بوصف الرجل وقال له : لله أبوك نعم تلك صلاة العصر وذاك وقتها هند القوم ، أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك . أنت ؟ فأجاب الجاسوس : أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة ، وأصلى من مرو ، ومولدى بمدينة السلام .

فسأله الرشيد : كيف احتمالك لمكروه تتمحن به فى طاعتي ؟ فأجاب : أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كن بمكانك حتى أرجع إليك ، ثم عاد ويده كيس قد ملئ بالدنانير ، وأعطاه له وقال له : دعنى وما أدبر فيك . ثم فكر ملياً ونادى يا غلام ، فدخل اثنان من حراسه ، فقال لهما : اصفعا ابن اللخاء

وأخرجاه إلى من بالدار وعمامته في عنقه ، وقولا : هذا جزاء من يسمى ببطانة أمير المؤمنين .

ولما كان ما حدث هو من الأهمية بمكان ، وفيه سلامة الدولة ، أراد الرشيد أن يخطو خطوة خطيرة ويتثبت من حقيقة ما وصل إليه بنفسه ، فدعا وزيره جعفر ليتغدى معه ، وليستدرجه في الأمر . فلما أحضر فإذا به يحمل معه البريد والتوقيعات . فسأله الرشيد : ماذا قلت بصدد مذهب عفونا عنه . فأجابه جعفر قلت يا مولاي العدل أوقعه ، والعفو أطلقه .

ثم قال له : وماذا قلت للوالي الذي شكاه من الناس كثيرا ؟ . فأجاب جعفر كتبت إليه : قد كثرت شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما تهدلت ، وإما عزلت . فسأله الرشيد : وماذا قلت لأصحاب الشكوى منه ؟ هلا ذكرت لهم عين الخليفة تسكؤكم ، ونظره يعمكم .

هذا وما زال الرشيد يستدرجه تارة بمدح بعض أصناف الطعام ، وتارة بظرف الحديث ، إلى أن فاجأه مفاجأة خطيرة بقوله : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ ، فأجاب جعفر : هو بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال . فاسترسل الرشيد في سؤاله بأن قال له بحياتي ! فارتبك جعفر ، وعرف أن الرشيد قد علم بأنه أطلق سراح يحيى . فأجاب قائلا : لا وحياتك يا سيدي ، ولكنني علمت أن لا مكروه من إطلاقه فأطلقته . فقال له الرشيد مغالطا : إنك ما عدوت ما كان في نفسي . ولما هم جعفر بالانصراف أتبعه الرشيد نظره حتى كاد يتوارى عن بصره ، وقال متمتا : قتلني الله إن لم أقتلك ! . أما الوزير جعفر فتوجس خيفة من الرشيد : فأراد أن يتعرف ذلك بغيره لا بنفسه فقال لصديق له يدعى زيد بن علي : يا زيد إنني استريت بأمر هذا الرجل ، وإنني أردت أن أعتبر ذلك بنيري ، فمكنت أنت فارمق ذلك من يومك هذا ، وأعلمني بما ترى منه . فقال له صاحبه وهو يحاوره : أفعل ذلك . ثم توجه إلى قصر الرشيد حيث السمر والغناء ، فلما نهض الرشيد من مجلسه خرج زيد بن علي مسرعا حتى سار إلى شجر في طريق جعفر ، واختفى فيه ومر جعفر ومن معه في الندماء حتى إذا

قرب من مكان صديقه ، قال : اخرج يا فلان وأخبرني بما عندك : فدهش صديقه وقال : حتى تخبرني أنت كيف علمت أني هاهنا . فأجابه جعفر عرفت عنايتك بما أعنى به ، وأنت لم تكن لتصرف حتى تعلمني بما رأيت منه ، وعلت أنك تكره أن ترى واقفاً هنا في مثل هذا الوقت ، وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع ، فقضيت بأنك به فهاهنا ما عندك . فقال زيد : رأيت الخليفة يهزل إذا جددت ، ويجدد إذا هزلت ليسيكيدك بذلك ، فأعجب جعفر بذلك . صاحبه وقوة فراسته وقال له : هو كذلك عندي .



فرظنا كتابين لحضرة الأستاذ النابه على فكرى بك أحدهما في عدد صفر وعنوانه : البيان الفاصل بين الحق والباطل ، ذكرنا فيه أن نسخته التي بين أيدينا من طبعته الثانية ، والحقيقة أنها من طبعته الأولى ولم يطبع للمرة الثانية بعد .

وفرظنا في عدد جمادى الأولى كتابه الذي عنوانه : خلاصة الكلام في أركان الإسلام ، وقلنا : وقد صدرت منه طبعته الأولى ، نعى التي بين أيدينا ، والحقيقة أنها طبعته الثانية . فرأينا أن نصحح هذا الخطأ .

فهرس

الجزء السادس — المجلد الحادي والعشرون

الموضوع	صفحة
أساديت الأستاذ الأكبر	٤٨١
زيارة جلالة ملك الأفغان الأزهر	٤٨٣
كلمة حضرة صاحب الفضيلة شيخ كلية الشريعة بين يدي جلالة ملك الأفغان	٤٨٤
عناصر المدنية في الديانة الإسلامية بقلم حضرة صاحب العزة مدير المجلة	٤٨٧
عن خصال الفطرة	٤٩١
حكمة التفاوت بين الناس	٤٩٥
انطرات في توثيق المعاملات	٤٩٨
الإصلاح الاجتماعي	٥٠١
التقاسم وخطره	٥٠٦
بين مالك والبيت	٥١٠
لقويات	٥١٨
على مامش الأدب	٥٢٣
طالب العلم بين ماضيه وحاضره	٥٢٧
غاية عالم سني على دولة المأمون	٥٣٣
عمر بن الخطاب	٥٣٨
اعلام الأزهر	٥٤٢
معرفة الغيب	٥٤٧
المعاهدة الإسلامية	٥٥٣
الدين والسياسة	٥٥٨
من طبائع الشعر الجاهلي	٥٦٢
الوانت أهملت	٥٦٦
الخيال الشعري	٥٦٩
في قصر الرشيد	٥٧٣